كذلك قد علّم الإسلام أنه إذا وضع العدوُّ السلاح فكُفّوا عن قتاله، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾(الأَنْفال:٦٢).. أي إذا أراد العدو التصالح فلا ترفضوا الصلح، ولا يجوز لكم قتاله بعد إعلان الصلح.

أما فيما يتعلق بالعلاقات الدولية فقد سنّ الإسلام لها قوانين لا يمكن أن يجاريه فيها دين آخر. لقد وضع الإسلام لإزالة الخلافات بين الدول تعليمات شاملة مكتملة لا توجد حتى في قوانين "عصبة الأمم" التي كانت سابقا، ولا في قواعد "هيئة الأمم المتحدة" التي تكونت حديثا؛ لأن هاتين الهيئتين لم تأخذا باقتراحات القرآن الكريم بشكل كامل. وقد ذكرتُها بالتفصيل في كتابي "الأحمدية". يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(الحجرات:١٠).. أي إذا تحاربت دولتان فمن واجب الدول الأخرى أن تضغط عليهما لإزالة خلافاتهما، وإذا توصل هؤلاء إلى قرار، وخالفتْه إحداهما وشنت الهجوم على الأخرى، فمن واجب جميع الدول أن تشنّ حربا موحدة عليها لكي تنتهي عن القتال وتخضع للقرار؛ وإذا خضعت فيجب عدم محاربتها، بل يجب تنفيذ القرار، ولا يجوز للدول الأخرى استغلال تلك الدولة ونهْبها، وإنما عليهم أن يكتفوا بإحلال السلام.

كنتُ في إنجلترا عندما تكوّنت عصبة الأمم، وكنت قد أعلنتُ في حينها أنها لن تنجح، لأن القرآن الكريم قد اشترط أنه إذا اختلفت دولتان و لم تخضع إحداهما لقرار الأمم الأخرى، فمن واجبها كلها شن الحرب عليها، ولكن لم تضع عصبة الأمم في قواعدها أي اقتراح لشن الهجوم على الدولة المعتدية. أما هيئة الأمم المتحدة التي تكونت حديثًا فأقول إن مصيرها هو مصير عصبة الأمم، فهي أيضًا لن تنجح أبدا ما لم تغير قواعدها، إذ لا تتضمن قواعدها ما يعلّمه الإسلام. لا شك أنهم وضعوا فيه خيار شنّ الهجوم على الدولة المعتدية، ولكن لم يحددوا طريقة تنفيذه بدقة. ثم إنهم قد ضمّوا إلى هذه الهيئة دولاً دون دول، منها إسبانيا مثلاً، فما دامت إسبانيا مستعدة للعمل بشروط هذه الهيئة فيجب ضمّها إليها. كذلك منحوا

بعض الدول خيارات أكثر من الأخرى، مما يعني أنهم يتعاملون بالتمييز الذي يرفضه الإسلام بشدة، ولذلك قلت إن مآل هذه الهيئة أيضًا الفشل.

إن أوروبا مبتهجة اليوم بأنهم قد وضعوا مثل هذا القانون، وما يدريهم أن هذا القانون قد نزل متكاملا من كل النواحي في القرآن الكريم قبل أكثر من ١٣ قرنا! ولو أنهم عملوا به لزالت جميع الخصومات التي دفعت بالعالم اليوم إلى هوة الهلاك والدمار، ولعاشت الإنسانية بسلام واستقرار ثانية.

ما ذكرتُه آنفًا هو تعاليم الإسلام بشأن الناس، والتي لا مثيل لها عند الأديان الأخرى. وأبين الآن أن الإسلام لا يعطينا التعليمات بشأن البشر فقط، بل إنه يعتني بالحيوانات ويأمر بالرفق والعناية بها، قال الله تعالى ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾(الذاريات:٢٠). ومن معاني ﴿الْمَحْرُومِ﴾ أناسٌ لا يستطيعون السؤال، وكذلك الحيوانات التي لا تقدر على السؤال كالقطط والكلاب وغيرها. لا شك أن بعض الأمم الأخرى أيضا ترفق بالحيوانات كثيرا، فالإنجليز مثلاً يرفقون بالكلاب كثيرا، والكلب عندهم خير من عشرة من الآسيويين، ولكنهم لا يرفقون بالكلاب لأن المسيح عليه السلام علّمهم ذلك، وإنما يحبونها برغبتهم وشوقهم. أما المسلمون فيرفقون بالحيوانات لأن الله تعالى أمرهم بذلك. ورد في الحديث: "دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ" (البخاري ومسلم). وكذلك ورد أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا، فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي؛ فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ (البخاري: كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء). وقال صحابي: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، فَرَأَيْنَا حُمَّرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ، فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتْ الْحُمَّرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرِشُ (أيْ تُرَفْرِفُ)، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا. (أبو داود: كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار)

وورد في الحديث أن النبي ﷺ مَرَّ بحمارٍ قد وُسِمَ في وجهه، فقال: أما بلغكم أني لعنتُ مَن وسم البهيمةَ في وجهها أو ضرَبها في وجهها، فنهى عن ذلك. (مسند أبو يعلى، مسند جابر)

فالإسلام لم يراع حقوق الناس فقط، بل حافظ على حقوق الحيوانات أيضا.

ثالثًا: تعليم الحكمة

والأمر الثالث الذي ذكره الله تعالى في هذه الآيات من سورة البقرة جوابًا على دعاء إبراهيم عليه السلام هو تعليم الحكمة، والحكمة في العربية هو ما يسمى بالإنجليزية (Philosophy).. أي الفلسفة، فكما أن التاريخ شيء وحكمة التاريخ شيء آخر، وعلْم اللغة شيء وحكمتها شيء آخر، والقانون شيء وفلسفته شيء آخر، كذلك الأحكام الشرعية شيء وحكمتها شيء آخر، فالأحكام تتعلق بالأحداث وتفاصيلها، أما الحكمة فتتعلق بخلفيات الأحداث ونتائجها. فالصلاة مثلاً عبادة معينة، لها أوضاعها وشروطها كالوضوء والنية وقراءة الفاتحة والركوع والسجود وترديد آيات وأدعية من القرآن الكريم والتسليم، أما فلسفة الصلاة فشيء آخر. فلو سئلنا ما هي الصلاة، لذكرنا تفاصيلها، أما لو سئلنا لماذا نصلي، فلن نذكر طريقة الوضوء والقيام والركوع والسجود، بل نبين سبب فرضيتها وهدفها وغايتها وفائدتها. فالمراد من فلسفة الشيء الحافزُ وراءه وغايتُه.. أي أن الفلسفة هي دوافع الشيء التي وقعت قبل حدوثه، أو نتائجه التي ترتبت بعد حدوثه؛ فمثلاً إذا أحسن إليك أحدٌ شكرتَه، فحافز الشكر قد سبَق شكرك، ولكنا أحيانًا نقوم بالعمل أولاً ثم نأخذ أجره الذي هو نتيجته، فأحيانا تصبح غاية العمل حافزًا له، وأحيانا تصبح بدايته حافزًا له؛ فإذا بيّنتَ سبب الشيء وغايته، فهذه هي الفلسفة، كذلك إذا بينتَ ما في الُحكْم مِن مصالح ومنافع ومزايا فهذه هي الحكمة والفلسفة. والقرآن الكريم هو الوحيد بين الصحف السماوية الذي أعلن أن كل عمل يجب أن يتم لحكمة وغاية. وهذا الأمر لا يخص الإنسان فقط، بل الله تعالى أيضا لا يفعل شيئا من دون حكمة وسبب. وقال الله تعالى ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾

(نوح:١٤).. أي: إذ ترفضون أن يقال بأنكم تفعلون أي شيء من دون هدف وحكمة، فكيف تقولون بأن الله تعالى خلَق السماوات والأرض عبثًا؟ ومِن أجل ذلك نجد أن الله تعالى قد ذكر من أسمائه "الحكيم"، وقد بيّن الحكمة وراء كل حكْم من أحكامه، و لم يقل: لأنني إلهٌ فلذلك آمرُكم بكذا وكذا. لو أن الله تعالى أمر الإنسان بشيء من دون بيان حكمته لضعُف إيمانُه إلى حد كبير، وقال: لم أستوعب الحكمة وراء ما يأمرني به الله. لقد سمى الله تعالى نفسه حكيمًا للإشارة إلى أنه لا يخلو أيُّ فعلٍ من أفعاله مِن حكمة وغاية، وإليه أشار الله تعالى في قوله ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾.. أي لو كنتم عقلاء لسعيتم ألا يخلو عمل من أعمالكم من الحكمة والمعقولية، إذ كيف تظنون أن أفعال الله تعالى تخلو من حكمة وغاية، وأنه قد اتخذ ولدًا! ولماذا يتخذ ولدًا!؟ إنما يرغب الإنسان في الأولاد ليكونوا تذكارًا له في الدنيا بعد موته، فمتى كان الله تعالى عرضةً للفناء حتى يتخذ ولدا؟ والسبب الثاني لرغبة الإنسان في الأولاد هو أن يكون له أنصار وأعوان ينصرونه، فهل الله عرضةٌ للضعف وتهديدِ العدو وغيرُ قادر على إدارة الكون حتى يتخذ ولدًا يساعده؟ ما دمتم لا تعملون أي عمل إلا لحكمة وغاية، فلماذا تظنون أن الله تعالى يفعل أفعاله عبثًا دونما حكمة وغاية؟ هل هناك أي معقولية في تصرفكم هذا؟

والآن أضرب بعض الأمثلة البسيطة التي تبين كيف أن الإسلام قد أسس جميع أحكامه على الحكمة. لقد نهى الإسلام الناس عن شتى السيئات التي قد ورد تفصيلها في القرآن والحديث، ولكن السؤال هنا: كيف ينشأ الإثم؟ إذ لا بد أن يكون هناك سبب لنشوء السيئة. إن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي بيّن أن للسيئات أبوابا إذا أغلقتموها تغلبتم على المساوئ. لقد قال المسيح الناصري عليه السلام: لا تنظر إلى امرأة بنية سيئة،* ولكنا نقول: إنما تسوء نية المرء بعد أن ينظر إلى امرأة

* نص ما ورد في الإنجيل هو: "إنَّ كُلَّ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ لِيَشْتَهِيَهَا، فَقَدْ زَنَى بِهَا فِي قَلْبِهِ" (متّى ٥: ٢٨). (المترجم)

جميلة، لا قبل ذلك، فكيف قيل: لا تنظرْ إلى امرأة من غير المحارم بنيّة سيّئة؟ فقد ثبت أن هذا الحكم بلا معنى وبالتالي لا فائدة منه. أما القرآن الكريم فيقول: لا تنظرْ إلى غير المحارم مطلقًا لا بنية حسنة ولا بنية سيئة، فإنك لا تدري ما إذا كانت فتنة لك أم لا. إذا كانت فتنة لك كان حبك لها حراما، فعليك إغلاق هذا الباب نهائيًا حتى يظل قلبك محفوظا من لوثة الإثم تماما.

كذلك لا ينهى الإسلام عن الفاحشة فقط، بل ينهى الرجال والنساء من غير المحارم عن الاختلاط، أما الأديان الأخرى فتقول بأنه يمكنكم الاختلاط ولكن لا ترتكبوا الفاحشة، مع أن تجنب السيئة صعب جدًّا مع توفُّر دواعيها.

كذلك تقول الأديان الأخرى بأنْ لا تنفقوا المال بطريق غير جائز، مع أن الواقع أن المرء إذا جمع المال فلا بد أن ينفقه أيضًا، أما الإسلام فيقول بأنْ لا تكنزوا المال، وإذا لم يُكنَزْ فلا سبيل لإنفاقه بطريقة خاطئة. لا شك أن الإسلام سمح للمرأة باقتناء شيء من الحلي للزينة، ولكنه حرّم المبالغة في ذلك.

ثم إن الإسلام قد جعل الأكل والشرب مقيّدًا بقيود، إذ قال الله تعالى ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾(الأعراف:٣٢).

إذن، فقد سَدَّ الإسلام طرق إهدار المال كليةً؛ فنهى عن الإسراف في الأكل والشرب، وعن اقتناء الكثير من الحلي، بل نهى المرأة عن التبرج، كما نهى عن الرقص والغناء وشرب الخمر. باختصار، قد حرم الإسلام جميع الأسباب التي تؤدي إلى الإسراف، مما يعني أنه لا ينهى عن الإثم فحسب، بل يغلق أبوابه أيضا. وهكذا بيَّن فلسفة الإثم بيانا لطيفا رائعا.

أما العبادات، فالإسلام هو الدين الوحيد الذي قد بيَّن فلسفتها وحكمتها. لقد أوضح لنا أن الصلاة ليست غرامة، بل إنها تنهى عن الفحشاء والمنكر. وكأن الإسلام يقول لك: صَلِّ، ولكن ليس لأن الله يريد أن تقوم بهذه الحركات الجسدية لعشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة، وإنما لأن الصلاة وسيلة لإصلاحك، فهي تنهى

عن المنكرات وتمحو الخطايا. أما كيف تنهى الصلاة عن السيئات؟ فهذا موضوع طويل لا أستطيع الخوض فيه الآن، إنما أكتفي هنا بالقول بأن القرآن الكريم لا يأمر بالصلاة فقط، بل يبين أيضا حكمتها وغايتها.

أما الصوم، فبيّن الله تعالى حكمته قائلا: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.. أي عليكم أن تصوموا لأن الصوم يزودكم بالتقوى، والتقوى تساعدكم على تجنب كل نوع من السيئات. عندما يشعر الصائم بالجوع فإنه يفكر بأنه قد تعرض لهذه المعاناة الشديدة رغم تناوُله وجبتين في اليوم، فما بالُ الذين يعانون الفاقة أيامًا! وهذا الإحساس يحفّزه على مساعدة الفقراء، الأمر الذي لا بد منه لتقدُّم الأمة.

باختصار، إن الإسلام لم يأمر بالعبادة فحسب، بل قد بيّن حكمتها أيضا، وأوضح أن العبادة إنما هي لمنفعة الإنسان، وليس أن الله تعالى يريد بها إظهار حُكْمه وهيمنته على العباد.

ومن أعظم محاسن القرآن الدالة على وجود الحِكم في أحكامه أنه قد التزم بالاعتدال فيها لكي لا تشقّ على الإنسان، فيصاب بالملل. لقد أمر الإسلام بالاعتدال في كل شيء من أكل وشرب، حتى في الصلاة والصوم وإنفاق المال. وإنه إذ نهانا عن كنْز المال، فقد نهى عن المبالغة في الإنفاق أيضًا، حتى لا يصبح المرء صفر اليدين، فيتحسر على إفلاسه. وإنه إذ أمرنا بالصيام فقد نهانا أيضا عن الصيام المستمر بلا انقطاع. ورد في الحديث أن عبد الله بن عمرو قال: أُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنِّي أَقُولُ: وَاللَّهِ لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ وَلَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ. فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ قُلْتُهُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي. قَالَ: فَإِنَّكَ لا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، وَصُمْ مِن الشَّهْرِ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ. قُلْتُ: إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ. قُلْتُ: إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا، فَذَلِكَ صِيَامُ دَاوُدَ عليه السلام وَهُوَ أَفْضَلُ الصِّيَامِ. فَقُلْتُ: إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ (البخاري: كتاب الصوم، باب صوم الدهر). وفي رواية أن عبدَ الله بن عمرو لما بلغ الكِبر و لم يقدر

على صوم يوم وإفطار يوم قال: "يَا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ النَّبِيِّ ﷺ." (البخاري: كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم)

وكذلك سمى النبي ﷺ مَن يصوم يوم العيد شيطانًا. *

أما الصلاة فقد نهى النبي ﷺ عنها إذا كانت الشمس في كبد السماء، أو عند شروقها أو غروبها (النسائي: كتاب الصلاة، ومسند أحمد). والحكمة في ذلك أنه لا بد للإنسان من وقت يستريح فيه ذهنه، وإلا ضعُف واختلّ. روي أنه دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ بيته، فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ، فَقَالَ: مَا هَذَا الْحَبْلُ؟ قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ، فَإِذَا فَتَرَتْ (أُرهقتْ) تَعَلَّقَتْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لا حُلُّوهُ؛ لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ. (البخاري: كتاب الجمعة، باب ما يُكرَه مِن التشديد في العبادة)

وورد في الحديث أن شخصًا نذر بالحج مع شروط معينة، فلم يستحبّه الرسول ﷺ، إذ ورد أَنَّ النبي ﷺ رَأَى شَيْخًا يُهَادَى بَيْنَ ابْنَيْهِ، قَالَ مَا بَالُ هَذَا؟ قَالُوا: نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ. قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ. وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْكَبَ. (البخاري: كتاب الحج، باب من نذر المشي إلى الكعبة)

كذلك عندما جاءت الغنائم أمر الله تعالى رسوله أن يجعل جزءًا منها للفقراء، ولما كان واردا أن يقال: لماذا لا توزَّع الغنائم على الفقراء والأغنياء على السواء ما داموا قد اشتركوا في الحرب، قال الله تعالى ﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾(الحشر:٨).. أي لقد جعلنا للفقراء نصيبًا خاصا في الغنائم لأن الأغنياء ذوو مال سلفًا، ولو وُزّعت الغنائم سوية بين الجميع لاجتمعت الثروة في أيدي الأثرياء

* نص الرواية التي وجدناها بهذا الصدد هو: "عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: يَوْمَانِ نَهَى رَسُولُ اللّهِ ﷺ: عَنْ صَومِهِمَا: يَوْمُ فِطْرِكُمْ مِنْ صِيَامِكُمْ، وَالآخَرُ يَوْمٌ تَأْكُلُونَ فِيهِ مِنْ نُسُكِكُمْ (مسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم يوم الفطر ويوم الأضحى). (المترجم)

فقط، ولذلك قد جعل الله في الغنائم نصيبًا خاصًّا للفقراء بالإضافة إلى توزيع الغنائم على جميع المجاهدين على السواء.

ثم إن الإسلام وحده الذي بيّن أن كل ما خلقه الله تعالى إنما خلقه لفائدة الإنسان، فقال الله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾(الجاثية:١٤). لقد بيّن الإسلام هذا الأمر قبل ١٣ قرنا حين كان العالم يجهل العلم الحديث. إن هذه البحوث المعاصرة تزيد صدق ما قال الإسلام جلاءً، حيث يكتشف العلماء كل يوم منافع آلاف الأشياء التي كانوا يعتبرونها من قبل ضارّة أو خالية من أي نفع. خذوا مثلاً الأفعى، فهي حيوان سامّ، ولكن العلماء ينتفعون اليوم مِن سُمّها منافع كبيرة، إذ هو نافع جدًّا في علاج مرض السلّ. كان في مدينة "بهاولبور" شخص مصاب بمرض السلّ، فقال له الأطباء أن لا علاج له، غير أنهم أشاروا عليه باستخدام السكر ليتزود بالطاقة، فأخذ يمتصّ قصب السكر باستمرار، وتماثل للشفاء، واكتُشف فيما بعد أن ثعبانا كان مدفونا تحت شجر قصب السكر، فسرى تأثير سمه إلى القصب الذي كان يمتصه فشُفي من مرضه. فسُمُّ الأفعى يُستخدم في العلاج بالمثل منذ سبعين عاما، وقد جربتُ هذا الدواء على كثير من المرضى، فنفعهم نفعًا غير عادي.

ثم خذوا الزرنيخ؛ الذي إذا تناوله الإنسان مات، ولكن الله تعالى لم يخلقه لقتل الناس بل لشفائهم من أمراضهم. فقد اخترع الأطباء منه أدوية كثيرة، وهو يستعمل خاصة لشفاء المصابين بالحمى المزمنة الخفيفة، وقد شُفي به مئات الآلاف.

ثم خذوا مثلاً البراز؛ الذي هو نجاسة كبيرة، ولكنها تُستعمل سمادًا لزروعنا، ولذلك يبيع مسؤولو البلدية مياه المجاري بأسعار عالية، مع أننا نعتبرها عديمة الفائدة.

أما البلغم؛ فيقوم الأطباء بتشخيص المرض بفحصه عبر المجهر، وإذا لم يكن عند المريض بلغمٌ أصيبَ الأطباء بالقلق وقالوا: يجب أن نولّد البلغم فيه ليساعدنا على تشخيص مرضه. وقد صُنع من البلغم ما يسمى (Autovaccine)، أي لَقاح ذاتي، وهو دواء نافع في شفاء الأمراض المزمنة.

فالحق أنه ليس هنالك شيء سيئ في حد ذاته، إنما يصبح سيئًا أو حسنًا بحسب الظرف. وهذا الأمر الذي اكتشفه أهل العلم الآن قد بيّنه القرآن الكريم قبل قرون.

أما الأخلاق الفاضلة؛ فبيّن الإسلام أنها اسم للاستعمال الصحيح لما في الفطرة الإنسانية من كفاءات. إن هذه الكفاءات تصبح سيئةً باستعمالها السيئ وحسنةً باستعمالها الحسن؛ فمثلا قد جعل الله تعالى في يد الإنسان قدرةً على أخْذ الأشياء، فإذا أخذ بها ما لا يجوز له أخذُه سُمي سارقًا، وإذا أخذ بها ما هو مِلْكٌ له سُمي عاملاً، ولا أحد يعيب العامل. أما إذا لم تكن بيده طاقة فكيف يعمل؟ باختصار، قد بين الإسلام أن كفاءات الإنسان الفطرية حسنة طيبة، إنما سوء استعمالها هو الذي يؤدي إلى الفساد، فإذا استخدمها في محلها وعند الضرورة استعمالاً سليما سُميت أخلاقا فاضلة. وهذه الحكمة لم تبيّنها أي ديانة سوى الإسلام.

رابعًا: تزكية النفوس

والأمر الرابع الذي كان لا بد من توفُّره للرسول ﷺ والذي سأله إبراهيم عليه السلام في دعائه هو تزكية النفوس، إذ قال الله تعالى استجابة لدعائه: لقد بعثنا فيكم رسولاً يطهّر قلوبكم ويذكي فيها نار حب الله تعالى، أما في سورة الكوثر فأخبرَ الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.. أي أننا لم نستجب لدعاء إبراهيم بأن يقوم هذا الرسول بتزكية قومه فحسب، بل أعطيناه الكوثر في هذا المجال.

والتزكية ثلاثة أنواع: تزكية المشاعر والعواطف، وتزكية العمل، وتزكية الفكر. والنفس الإنسانية بحاجة إلى التطهير بكل أنواعها: أوّلها تزكية العواطف؛ لأن المشاعر هي أول ما ينشأ في الإنسان، فأعمال الوليد مبنيّة على المشاعر فقط، لأن زمن العمل والتفكير يأتي لاحقًا، فجوعه وصراخه وبكاؤه على فراق أُمّه، كل هذه الأمور أساسها العواطف والمشاعر. ثم إذا قدر على المشي والحركة قام ببعض الأعمال، وإذا دخل سنّ البلوغ بدأ في التدبر والتفكير والاستنتاج. وإذا اكتملت هذه الثلاثة اكتمل نموه.

أبدأُ أولاً بأمر تزكية العمل، فأقول: لقد تبين مما ذكرته قبل قليل من أمور أن التزكية نتيجة حتمية للعمل بأحكام الإسلام، وأن الإسلام وحده الذي يولّد التزكية الحقيقية. والواقع أنه إذا كانت أحكام الدين صحيحة وعمل بها الناس، فلا بد أن تتيسر لهم التزكية، ولكن إذا كانت الأحكام غير صحيحة وعمل بها المرء، فلا بد أن يتعثر. فمثلا: قد أمَرنا الإسلام بالعفو إذا كان نافعًا، وبالعقاب إذا كان مفيدا، فمَن لم يعمل بهذا الحُكم فهذا شأنه، ولكن الذي يعمل به فلا بد أن يصبح أفضل إنسان. ولكن اليهودية تأمر بمعاقبة كل مجرم، فهي تعلّم أن الأنف بالأنف والأذن بالأذن والعين بالعين، فمَن لم يعمل بهذا الحُكم فهذا شأنه، ولكن الذي يعمل به فلا بد أن يقع في الخطأ ويرتكب الظلم والعدوان آلاف المرات. ويقول الإنجيل مثلاً: "مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ فَاتْرُكْ لَهُ الرِّدَاءَ أَيْضًا. وَمَنْ سَخَّرَكَ مِيلاً وَاحِدًا فَاذْهَبْ مَعَهُ اثْنَيْنِ" (مَتَّى ٥: ٣٩-٤١).. فمن لم يعمل بهذا التعليم فهذا شأنه، ولكن الذي سيعمل به فلا بد أن يقع في الإثم مرة بعد أخرى. فعلى سبيل المثال؛ لو اقتحم اللصوص بيته فيجب -بحسب هذا التعليم الإنجيلي- أن يُخرج لهم ما لم يأخذوه من أثاث بيته قائلا: لقد أخطأتم إذ لم تأخذوا هذا، فها إني أضعه أمامكم. فماذا تكون نتيجة العمل بهذا التعليم يا ترى؟ سيُقضى على أمن البلاد وتنتشر الفوضى والفساد في كل مكان، وتكثر حالات السرقة وقطع الطرق ويعتاد الناس الجرائم. أما الإسلام فأعلن أن مَن قُتل دون ماله أو عِرْضه فهو شهيد (الترمذي: أبواب الديات، وأبو داود: أبواب السنة). وهذا هو التعليم القادر على إرساء السلام في العالم؛ ذلك أنه إذا هاجم قُطّاع الطرق قرية وخرج أهلها للتصدي لهم فلن يجرؤوا على اقتحامها، لإدراكهم أن أهلها مستعدّون لحربهم. ثم إذا علم كلّ فرد من المجتمع أنه إذا قُتل دون ماله أو عِرضه فهو شهيد، فلن يخاف الموت، لعلمه أنه إذا قُتل في هذا الاشتباك فهو شهيد، وإذا نجا من القتل فإنه يكون قد حمى ماله وعرضه أيضا.

فالحق أن تعاليم الإسلام هي التي تقدر على توطيد السلام وليست تعاليم المسيحية أو اليهودية.

كذلك تقول كتب اليهود لهم: إذا فتحتم بلدًا فاقتلوا رجالهم، بل اقتلوا مواشيهم، وخذوا نساءهم وأطفالهم أسرى!● ما أشدَّ هذا الحُكمَ قسوةً ووحشية! وكيف يمكن إرساء السلام به؟! فإذا كان اليهود يقتلون رجال القوم ويأسرون نساءهم وأطفالهم، فلا بد أن يفعل أعداؤهم بهم ما فعلوا كلما وجدوا فرصة لذلك، لأن لكلّ فعل ردّ فعل. وماذا ستكون النتيجة في النهاية؟ سوف تهلك الزروع والأموال، ويقلّ أفراد القوم، وتقلّ الأيدي العاملة عند الطرفين، لأن الجميع قد قُتلوا. أما الإسلام فيأمر بأنكم إذا اضطررتم للقتال فـ ﴿قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾(البقرة:١٩١).. أي لا تقاتلوا إلا الذين يقاتلونكم. لا حرج أن تحاربوا الذين يُخِلّون بأمن البلاد منتهكين القانون والأخلاق والمُثل العليا، ولكن كيف يحقّ لكم أن تقاتلوا الذين لم يشتركوا في القتال؟ يمكنكم أن تقتلوا الذين يرفعون السيف لقتلكم، ولا حرج في قتلهم، ولكن لماذا يُقتَل الجالسون في بيوتهم آمنين و لم يخرجوا لقتالكم ولا يشتركون فيه بأي طريق، حتى مع انتمائهم إلى الأمة المحاربة؟

ثم إن الإسلام ينهى عن قتل النساء والأطفال والضَّعَفة. والثابت تاريخيًا أنه لم يشترك جميع الصحابة ولا جميع الكفار في أي حرب، وكان عدد سكان الجزيرة عندها قرابة ثلاثة مئة ألف، وكان عدد الذين يشتركون في الحرب من الطرفين عدة آلاف فقط، ولو أن الصحابة قَتلوا -كما تأمر اليهودية- جميع الكافرين بعد انتصارهم عليهم؛ المشتركين منهم في القتال وغير المشتركين لما بقي في الجزيرة إلا

● ورد مثلا: "اعْبُرُوا فِي الْمَدِينَةِ وَرَاءَهُ وَاضْرِبُوا. لاَ تُشْفُقْ أَعْيُنُكُمْ وَلا تَعْفُوا. اَلشَّيْخَ وَالشَّابَّ وَالْعَذْرَاءَ وَالطِّفْلَ وَالنِّسَاءَ، اقْتُلُوا لِلْهَلاَكِ."(حِزْقِيَال ٩: ٥-٦)

وورد: "وقَتَلوا بحدِّ السيف إكرامًا للربِّ جميع ما في المدينة من رجالٍ ونساءٍ وأطفالٍ وشيوخ، حتى البقر والغنم والحمير" (يشوع ٦:٢١). (المترجم)

قليل من المسلمين، وإذا قُتل الكفار كلهم فبَيْن مَن كان الإسلام سينتشر؟ فثبت أن تعليم اليهودية ناقص، وأن تعليم الإسلام هو القادر على إرساء السلام في العالم حقّا.

وليس هذا فحسب، بل إن الرسول ﷺ قد عفا عن أعدائه كلهم يوم فتح مكة، إلا سبعة مِنهم، إذ كان هؤلاء قد ارتكبوا فظائع يندى لها جبين الإنسانية، ضاربين كل القيم والأخلاق الإنسانية عرض الحائط، فأمر ﷺ بقتلهم حيثما وُجدوا، ولكنه قد عفا عن أكثرهم أيضًا فيما بعد (السيرة النبوية لابن هشام: باب من أمر رسول الله ﷺ بقتلهم). وكانت من بينهم هند زوجة أبي سفيان، وهي التي كانت قد مثّلت بجثّة سيدنا حمزة ﷺ، فجدعتْ أنفه وأذنيه ومضغتْ كبده (البداية والنهاية: غزوة أحد)، فبسبب جرائمها الوحشية هذه التي لا علاقة لها بالحرب -فالحرب تعني أن يَقتل المقاتِل خصمه- أمر الرسول ﷺ بقتلها. وكان من جرائمها أيضًا تحريض الكافرين على قتال المسلمين دائما. لكنها انضمت إلى مجموعة النساء اللواتي جئن لبيعة الرسول ﷺ يوم الفتح متنكرةً متنقبة لأن حكم الحجاب كان قد نزل عندها، فظلّت تردّد كلمات البيعة معهن وراء النبي ﷺ، وعندما وصل النبي ﷺ إلى قوله: قُلن إنكن لن تشركن بالله تعالى، لم تملك هند نفسها وقالت: وهل نشرك بعد كل هذا؟ كنا آلافًا و لم يكن معك إلا قِلّة من الناس، كنا أقوياء وكنت ضعيف الحيلة، كنا ذوي عدة وعتاد للحرب، و لم يكن بيدك شيء، وما كان بوسعك أن تنتصر علينا حتى لو لم تنصرنا آلهتنا، ومع ذلك انتصرت علينا، فثبت أن القوة لإلهك، لا لآلهتنا. فقال النبي ﷺ: أأنت هند؟ لقد كانت من أقارب النبي ﷺ، فعرَفها من صوتها. وكانت حادّة الطبع، فلم تلبث أن قالت: نعم، يا رسول الله؛ ومع أنك قد أمرتَ بقتلي حيثما وُجدتُ، لكنك لا تستطيع الآن قتلي، لأني قد أسلمتُ. فقال النبي ﷺ: صدقتِ، فقد صار قراري لاغيًا الآن. (السيرة الحلبية: فتح مكة شرّفها الله تعالى)

والشخص الثاني الذي أمر الرسول ﷺ بقتله حيثما وُجد هو عكرمة بن أبي جهل. لقد هرب يوم الفتح من مكة متوجها إلى الحبشة حتى وصل إلى الساحل،

وكانت زوجته قد أسلمت منذ فترة سرًّا، فجاءت إلى النبيّ ﷺ وقالت: يا رسول الله، إني مسلمة منذ زمن، لكن زوجي ظلّ يحاربك. وقد عارضك لأنه كان يرى أنك على الباطل، وإلا لماذا يحاربك؟ وقد أمرتَ بقتله حيثما وُجد. يا رسول الله، إنك كريم رحيم فاعفُ عنه، لأنه لو خرج إلى بلد آخر لهلك. أتريد أن يهلك أحد أقاربك أم تريد أن يهتدي؟ فقال ﷺ: لو هُدي لكان خيرا، ومع ذلك أقول: إنه لو ظل على دينه وعاش في الجزيرة العربية فلن يتدخل أحد في دينه. قالت: يا رسول الله، فهل تعِدني بالعفو عنه لو جئتُ به؟ قال: نعم. فخرجت بحثًا عن زوجها، فوجدته بالساحل وهو يركب سفينة متجهة إلى الحبشة، وكان يحب زوجته كثيرا، فلما التقيا قالت: أليس الأفضل أن تختار سيادة عربيّ على سيادة أعجميّ؟ ثم ألا تفكّر أنك بلغت في عداوته ﷺ الذروة، ومع ذلك فإنه قد قال لي: لو جاءني عكرمة فسأعفو عنه، ولن يتدخل أحد في دينه؟ فقال: أحقًّا قال هذا؟ قالت: نعم، إنك زوجي فكيف يمكن أن أكذب عليك وأعاديك. لقد وعدني الرسول فعلاً بذلك. قال: لكني لا أصدّق ذلك، إذ لا مجال للعفو عني بعدما بلغتُ من عدائه ما بلغت. قالت: لقد أخذتُ من النبي ﷺ عهدًا، فتعال واسأله بنفسك. فرجع عكرمة إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد -لقد ناداه ﷺ باسمه لأنه لم يكن قد أسلم بعد- لقد لحقتْ بي زوجتي وأخبرتني أنك قد وعدتَها بأنك ستعفو عني ولن تكرهني على الإسلام لو رجعتُ، فهل هذا صحيح؟ قال النبي ﷺ: نعمْ. وكان هذا أمرًا غير عادي بالنسبة إلى عكرمة، إذ ما كان ليتصور أنه ﷺ سيعفو عنه ولا يُكرهه على الإسلام، فتطهّرَ قلبه دفعة واحدة، فما لبث أن قال: يا رسول الله، ها إني أؤمن بك، لأن هذا العفو والإحسان لا يمكن أن يصدر إلا من نبي. فسُرّ النبي ﷺ بإسلامه كثيرا، وقال يا عكرمة: سَلْ ما تريد؛ وكان ﷺ يعني أنه إذا أراد إنقاذ ماله وعقاره فسيحقق له رغبته، ولكن عكرمة الذي كان عدوا لدودا للنبي ﷺ كان قد انقلب رأسًا على عقب، فأجاب: يا رسول الله، لا أريد الدنيا، لقد بلغتُ في عدائك الذروة، وكل أمنيتي الآن أن تدعو الله تعالى ليغفر لي خطيئاتي، ولا أريد أكثر من ذلك (السيرة الحلبية: فتح مكة).

هذا هو الشخص الثاني الذي أمر الرسول ﷺ بقتله حيثما وُجد.

والشخص الثالث من هؤلاء السبعة هرب إلى الشام، وظل مشردًا هنا وهناك، فقال له القوم: لماذا تعيش تائهًا هكذا بعيدا عن الشخص الذي يمكن أن يحسن إليك، فارجعْ إليه واطلب منه العفو. قال: كيف أطلب منه العفو، وقد أمر بقتلي حيثما وُجدتُ؟ قالوا أنت رجل ذكيّ، فارجعْ إليه متنكرًا واطلبْ منه العفو. وكان هذا شاعرًا وابن شاعر، فوصل إلى المدينة متنكرًا، فعرفه المهاجرون إذ كان من أقاربهم، ولكنهم أعرضوا عنه، فوصل إلى النبي ﷺ متنكرا، وقال: لقد قلت فيك شعرًا فاسمح لي بإنشاده، فسمح له النبي ﷺ، فأنشد قصيدته المشهورة بالبردة، وكعادة العرب بدأ قصيدته بالحديث عن حبيبته وناقته ثم عرج إلى ذكر الرسول ﷺ فقال ما معناه: يقول لي الناس، يا ابن كلثوم، إنك تدخل على الأسد في عرينه، وسوف تُقتل، ولكني أقول لهم: دعوني مِن هذا، فإن رسول الله كريمٌ عفوٌّ. فلما قال ذلك أدرك الأنصار أنه أحد السبعة الذين أمر الرسول ﷺ يوم الفتح بقتلهم حيثما ثُقفوا، فأخرجوا سيوفهم من أغمادها منتظرين أوامر الرسول ﷺ احتراما له، حتى أنشد الرجل:

إنّ الرسول لسيفٌ يستضاء بِهِ مُهنَّدٌ مِن سيوف الله مسلولُ

(السيرة النبوية لابن هشام: أمر كعب بن زهير بعد الانصراف عن الطائف، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية: قصة كعب بن زهير)

ثم قام بمدح القرآن الكريم، فأخذ النبي ﷺ رداءه وألقاه عليه إعلامًا بأنه قد عفا عنه. فاستبشر الصحابة وتهلّلوا فرحين.

لقد تُوفيت إحدى بنات النبي ﷺ الحوامل نتيجة إيذاء الكافرين (الاستيعاب في معرفة الأصحاب: زينب بنت رسول الله ﷺ)، وتُوفّيت زوجته الحبيبة خديجة جوعًا وفاقة، ومات عمه أبو طالب أيضًا جوعًا وهو الذي قد خدمه كثيرا رغم عدم إيمانه به (السيرة الحلبية: باب ذكر وفاة عمه أبي طالب وزوجته ﷺ خديجة رضي الله عنها)، كما استُشهد عمه ﷺ حمزة وجُدع أنفه وأذنه وبُقر بطنه، وتعرّضَ ﷺ لصنوف الأذى الأخرى، ومع كل هذا التعذيب وسفك الدماء من قِبل الكافرين لم

يكن عدد الكفار الذين أمر الرسول ﷺ بقتلهم حيثما ثُقفوا إلا سبعة، ثم عفا عن ثلاثة منهم، أما الباقون فلم يثبت قتلهم بحسب التاريخ. إن هذه الأسوة الحسنة التي قدّمها الرسول ﷺ لأمته هي التي قامت بتزكية قلوب الصحابة ونفوسهم، وجعلتهم هداة للعالم.

ثم تقول الديانة اليهودية: لا تأخذ الربا من يهودي، ويمكنك أخذه من غير يهودي (انظر: التثنية ٢٣: ١٩-٢٠)، أما الإسلام فيقول: لا تأخذ الربا من مسلم ولا من غير مسلم. إذا كان الربا سيئًا فالتمييز بين يهودي وغيره في الربا عبث.

فالحق أنه لا يوجد في أي ديانة نظيرٌ لتزكية الأعمال كما في الإسلام.

والأمر الثاني هو تزكية العواطف والمشاعر. والحق أن تعريف الأخلاق الذي قدّمه الإسلام لا يقدّمه أي دين آخر قبله. لقد أعلن الإسلام أن من الخطأ اعتبار أفعال معينة سيئةً، لأن العمل في حد ذاته لا يكون سيئا، بل إن استخدام المرء قواه الفطرية في محلها أو غير محلها هو الذي يجعل عمله حسنًا أو سيئًا. فالمسيحية مثلاً تأمر بالترهُّب، مع أن الله تعالى هو الذي قد خلق الشهوة في الإنسان، ولو أمرت ديانةٌ بعدم التناسل وعدمِ استعمال ما خلقه الله بنفسه في الإنسان فالسؤال الذي يفرض نفسه هو: لماذا خلق الله الشهوة في الإنسان أصلاً؟ فكما أن هناك شهوة للطعام عند الإنسان، فهناك شهوة العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة، فإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يعيش من دون طعام، فكيف يمكن إصلاح أخلاقه بدون إشباع الرغبة الجنسية بين الزوجين؟ لقد اعتبرت الأديان الأخرى لجهلها علاقة الزوجين سيئةً، ولكن أطباء هذه الأمم أنفسهم قد أثبتوا أن هناك علاقة وثيقة بين القوة العقلية والقوة الرجولية، فإذا صار المرء مشتَّت الفكر وصفوا له حقنة (برندرين)● . وما هو برندرين؟ إنها تلك المادة الكيماوية التي هي سبب القوة

● "برندرين" هو اسمٌ طبي لهرمون التستستيرون؛ وهو الهرمون الذكري المسؤول عن القوة الجنسية عند الرجل، وهو إنْ توفّرَ في جسم الإنسان بنِسَبِه الطبيعية فهو يحافظ على البنية العضلية

الرجولية في الإنسان؟ يقول أطباؤهم إنه إذا ضعف المرء جنسيًا ضعف عقله أيضا، أي أنهم بقولهم هذا يؤيدون الإسلام ويدللون على صدقه. تقول المسيحية بوجوب قتل المشاعر الفطرية، وتعتبر إشباع الشهوة الجنسية بالزواج إثمًا، وتقول: تَرهّبوا، ترتقوا روحانيًا. ولكن الإسلام يعلن أنَّ قتْلَ المشاعرِ الفطريةِ والترهّبَ إثم، إنما عليكم أن تتزوّجوا وتنجبوا وتزيدوا نسلكم. تقول المسيحية أن ترهُّبَ المرأة علامةٌ على صلاحها (رِسَالَةُ بُولُسَ الرَّسُولِ الأُولَى إِلَى أَهْلِ كُورِنْثُوسَ ٧: ٢٦- ٢٩ ورُؤْيَا يُوحَنَّا اللاَّهُوتِيِّ ١٤: ٣-٥)، بينما يعلن الإسلام أن المرأة إذا لم تتزوج أثمتْ، بل يأمر بِحَثِّها على الزواج إذا لم تتزوج، وكذلك يأمر الرجل بالزواج حتمًا، بل قال الرسول ﷺ: "تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ" (أبو داود: كتاب النكاح).. مما يعني أن المسيحية قد قتلت الفطرة، أما الإسلام فقد رفع من شأنها. فيمكن أن تحكم بنفسك أي من الديانتين تقوم بالتزكية. إن غير المتزوج كلما رأى امرأةً فَقَدَ التزكية، لأن عنده شهوة إلى المرأة، ولكن المتزوج لن ينظر إلى امرأة بسوء، لأنه شبعان من هذه الناحية. إن مَثَلَهما كمثل الجائع الذي إذا رأى الناس يأكلون فلا بد أن ينظر إليهم بطمعٍ، أما الشبعان فإذا رآهم يأكلون فلن يرغب في الأكل. فالمتزوج كرجل قد زالَ جوعه وشَبِع، فلن يرغب في امرأة يراها. لا شك أن هناك استثناءات إذ نجد بعض المتزوجين الطامعين ينظرون إلى نساء الآخرين بسوء، مثلما نجد أن الشبعان لا يطمع في طعام الآخرين عادة، ولكن بعض الجشعين ينظرون إلى طعام الآخرين على شبعهم. فالقانون العام أن الزواج يزوّد المرء بالتقوى، ولذلك قد نهى الإسلام عن الرهبانية، بينما اعتبرتْها المسيحية فضيلة. تقول المسيحية: اقتلوا عواطفكم، ويقول الإسلام: استعمِلوا عواطفكم في محلها؛ إذ لا تتيسر التزكية من دونها.

والقوام، ويقي من أمراض السكري والقلب والأعصاب والسمنة والاكتئاب ومرضِ الخَرَف الذي يصيب الدماغ والمعروف بالزهايمر. (المترجم)

ثم إن أحكام الإسلام عن الإرث تساعد على التزكية أيضا؛ إذ تقول الأديان الأخرى بأن الأب مالكُ أمواله وعقاره، فله أن يهبْها من شاء من أبنائه، أما الإسلام فيعلن أن لجميع الورثة حقًّا في مال المتوفى، ولا يحلّ أن يُعطَى شخص واحد كل المال والعقار الذي تركه المتوفى، ومن أجل ذلك قد جعل الإسلام نصيبا لكل وارث في ماله، ولا بد أن يعطى كل واحد منهم نصيبه، ومن خالف هذا القانون من دون سبب -أيْ سبب ديني- فإنه آثم. أما المسيحية فيكون الابن الأكبر فيها هو وارث مال أبيه عادة، فماذا عسى أن يقول أبناؤه الآخرون؟ لا شك أنهم يرمون أباهم بالجهل إذ حرمهم من ماله، بل من الممكن أن يقول الأوروبيون أن التقصير ليس من أبيهم وإنما الذنب على الدولة، فهي التي سنّت هذا القانون. أما المسلمون فليس عندهم أي عذر كهذا.

باختصار، لقد أمر الإسلام بتوزيع مال الميت على جميع أولاده وألا يُحرم أحدٌ منهم حقَّه فيه، وهكذا لم يحافظ الإسلام على حقوق الأولاد فحسب، بل قام بتزكية مشاعرهم أيضا، لأن الابن الذي لا ينال نصيبه من مال أبيه لا بد أن يلومه طول حياته. وكيف ينبع الدعاء من قلبه لأبيه؟

باختصار، إن تعاليم الإسلام هي التي تقوم بتزكية مشاعر الناس وتطهير قلوبهم.

والأمر الثالث هو تزكية الفكر: والفكر قوة عظيمة. إن المشاعر والعواطف تولِّد في المرء حماسًا عابرا كالجوع والعطش والشهوة، أما الفكر فيعني تدبُّر المرء فيما عنده من علوم سابقة والاستنتاج منها. إن العواطف تتعلق بالقلب، والفكر يتعلق بالعقل، وتعاليم الاسلام تُصلح فكْر الإنسان أيضا، وقد اتّبع لإصلاح فكره عدة طرق، أوّلها: أنه أمَر برفع الأذان في الأذن اليمنى للوليد، والإقامة في الأذن الأخرى فور ولادته. ويستغرب الناس مِن رفْع الأذان في أذن وليد لا يتكلم ولا يعي شيئا، ولكن علم النفس قد كشف لنا اليوم أن الأصوات التي تقع في آذان الوليد تترك فيه تأثيرا قويا. كانت في فرنسا سيدة تتكلم في بعض الأحيان بلغة ألمانية فصيحة تذهل الناس، مع أنها لم تكن تعلم اللغة الألمانية، فأخذ البعض يقولون

بأنه قد تلبّسَها جنّيٌّ، وهو الذي يتحدث بلسانها. فلما شاع خبرها حضر عندها أحد علماء النفس، فوجدها بالفعل تخطب أحيانًا خطبة فصيحة بالألمانية، فوجّه إليها أسئلة شتّى، منها فيما إذ كانت أُمّها تعمل عند أحد الألمان؟ فتبين له أنه عندما كان عمرها سنة ونصف، كانت أمها تعمل عند قسيس ألماني. فذهب عالم النفس هذا للقاء القسيس، فعلِم أنه قد تقاعد ورجع إلى وطنه. فذهب العالم إلى وطن القسّ، فأخبره الناس أنه قد توفي وخلّف ابنًا. فلقي العالم ابنَ القس وسأله ما إذا كان عنده شيء من خُطب أبيه، فأخرج له بعض خطبه بالألمانية. فقام عالم النفس بتفحص هذه الخطب، فعَلِمَ أن الخطبة التي تلقيها هذه السيدة بعض الأحيان موجودة بين تلك الخطب. ثم علم أن القس هذا كان يلقي خُطبه وهذه البنت في حضن أمها. فانظر كيف أن خطب القس كانت ترتسم في قلبها وعقلها مع أن عمرها كان سنة ونصف فقط.

إذن، فقد استنتج علم النفس المعاصر أن هناك مراكز في دماغ الإنسان يرتسم عليها كل صوت يسمعه، وإن كان عمره يومًا واحدا فقط. وقد نبّه الإسلام إلى هذا الأمر قبل ١٣ قرنا عندما كانت الدنيا تجهل العلوم المعاصرة، فأمَرنا بالأذان في أذن الوليد فور ولادته تنبيهًا إلى أن عملية تربيته يجب أن تبدأ منذ لحظة ولادته، فمن واجبكم أن تلقوا في أذنه أمورا حسنة دائما، فإذا أسمعتموه أمْرًا حسنًا في اليوم الأول، فيجب أن تلقوا في أذنه ما هو أحسن منه في اليوم التالي. إذن، فتزكية الأفكار أمر بالغ الأهمية عند الإسلام، حتى إنه أمر كل مؤمن أن يلقي في أُذُنَي وليده منذ يوم ميلاده أمورا حسنة، وإن لم يفهم منها شيئًا، حتى إذا كبر اعتاد الفكر الصحيح.

الواقع أن الفكر الخاطئ يفسد عقائد الإنسان. فمثلا يعتقد المسلمون في هذا العصر لسوء حظهم أن عيسى عليه السلام حي في السماء، وسيرجع إلى الدنيا، وسوف ينهب أموال الناس ويضعها في أيدي المسلمين. وقد دفعت هذه العقيدة الخاطئة بالأمة كلها إلى الكسل والغفلة بشكل مرعب. فلو كان فكرهم صحيحا لأدركوا أن انتصارهم على العالم محال من دون تضحية، إذ لم تكن في الدنيا أمة أحرزت

النجاح من دون تكبّد المصاعب والمحن. إن أنبياء الله تعالى هم أفضلُ البشرِ، ومع ذلك قدّموا تضحيات عظيمة. من ذا الذي هو أفضلُ من الرسول ﷺ؟ إن المهدي أو عيسى أيضا سيأتي خادمًا للنبي ﷺ، وما دام هو لم يجد مناصًا من تقديم التضحيات، فكيف يستثنى المهدي أو عيسى من تقديمها؟ فثبت أن فساد الفكر يؤدي إلى فساد العقائد أيضا، ومن أجل ذلك قد ركز الإسلام على تصحيح الفكر أيما تركيز. وليست عقيدة حياة المسيح عليه السلام فقط، بل هناك عقائد فاسدة عديدة أخرى تسربت إلى المسلمين بفساد فكرهم، فيقولون مثلا بأن المسيح عليه السلام إذا عاد، أكره الكافرين على الإسلام بحد السيف، ومن لم يُسلِم منهم ضرب عنقه. إنهم لا يفهمون أن بوسعك أن تُكره المرء على الإقرار بالحق باللسان، ولكن كيف تؤثّر في عقله وقلبه؟ وإذا لم يقرّ بالصدق بقلبه، فما الفائدة من إيمانه؟ وإنما تجعله منافقا، إذ يقول الله تعالى لرسوله ﷺ بأن المنافقين يأتونك ويقولون: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾(المنافقون:٢). إذا كان إكراه أحد على الإيمان لا بأس به، فإن هؤلاء المنافقين كانوا يقرّون بأفواههم برسالة محمد رسول الله ﷺ، فكان يجب أن يفرح لذلك، ولكن الله تعالى يقول أنْ لا اعتبار لما يقولون بأفواههم، إذ لا يُقرّون به بقلوبهم، فهم كاذبون. فإذا أكرهت أحدا على الإيمان بالعصا فإيمانه لن يؤثر في عقله وقلبه، ولن ينفعه شيئا. مثلاً هناك شخص يؤمن بثلاثة آلهة، فإذا أكرهتَه على التفوه بأن الله واحد وقلبُه مقتنع بأن الله ثلاثة، فهذا سيولِّد فيه النفاق بدل الإيمان، الأمر الذي يجب ألا نفرح به، لأنه إذا كان متمسكًا بعقائده وكان ظاهره كباطنه، ستكون هناك إمكانية –رغم فساد عقيدته– أن نشرح له الأمر ونقنعه بالأدلة ونهديه إلى الحق، أما إذا أجبرناه على تغيير عقيدته، فهذا يعني أننا نقول له أن يقرّ بلسانه ما لا يؤمن به بقلبه.. أي أننا نعلّمه النفاق، وبالتالي عدم الإيمان.

فالحق أن تصحيح الفكر أمرٌ بالغ الأهمية، والإسلام وحده الذي علّمنا ما يُصلح الفكر.

باختصار، إن التزكية نتيجة حتمية لاتّباع تعاليم الإسلام، وهو الدين الوحيد القادر على التزكية.

لقد قدّمتُ حتى الآن أحكام الإسلام التي تساعد على تزكية القلوب، والآن نرى ما إذا كان الإسلام ولا يزال يقوم بالتزكية فعلاً أم لا، وما إذا كانت الأديان السابقة قد قامت بتزكية مثلها، وما إذا كانت قادرة على ذلك الآن أم لا.

كان العرب أوّلَ من خاطبهم الرسول ﷺ بدعواه، وكان بين المؤمنين به في أول بعثته قِلّةٌ من النساء والولدان والرجال، وكان من بين هؤلاء الرجال عبيدٌ لا مكانة لهم في المجتمع ولا بيت ولا حقوق مواطنة، وإذا ضربهم أسيادهم ما كان هناك من يسألهم عما فعلوا، إذ كانوا يُعتبرون مِلكًا لأسيادهم، ولم يكن هناك قانون يحميهم. وعندما آمن هؤلاء العبيد بالرسول ﷺ أخذ الكفار في تعذيبهم بإلقائهم على الرمال المحرقة وجَرِّهم على الحجارة حتى كانت جلودهم تتمزق ويصابون إصابات بالغة، وإذا اندملت جروحهم أعادوا هذه المعاملة الوحشية بلا انقطاع، حتى أصبحت جلود بعضهم كجلود البقر والجواميس. فقد ورد عن سيدنا بلال رضي الله عنه أن سيده كان يلقيه على ظهره ويقفز عليه بنعاله ويصر عليه أن يكفر بوحدانية الله، وكان بلال حبشيًا لا يتقن النطق العربي جيدا، فكان يجيبه على ظلمه وإصراره: "أسهد" ألا إله إلا الله. ولما صار بلال مؤذِّنَ الرسول ﷺ في المدينة كان الشباب يضحكون على قوله في الأذان: "أسهد" ألا إله إلا الله؛ لأنهم لم يروا ذلك المشهد الأليم الذي تعرض له بأيدي الكافرين، إذ كانوا يقفزون على صدره ويُصرّون عليه أن يقر بوجود آلهة دون الله، فكان يرفض قائلا: "أسهد" ألا إله إلا الله. وذات مرة رأى النبي ﷺ هؤلاء الشباب يضحكون على أذان بلال، فقال لهم: إن الله تعالى يحب قول بلال "أسهد ألا إله إلا الله" حُبًّا لا قيمة بعده لشهادتكم مقابل شهادته، وما يدريكم عن الظروف التي كان يعلن فيها وحدانية الله قائلا: أسهد ألا إله إلا الله؟ لم يكن له أم ولا أب ولا أخ ولا ابن ولا قبيلة ولا ناصح متعاطف يقوم بحمايته ونصرته، فكان الكافرون يرقصون على صدره ويجرّونه في الشوارع ملحّين عليه أن يقرّ بوجود آلهة مع الله، فكان يرفض بشدة قائلا: أسهد ألا إله إلا الله.

يا له من إيمان تحلى به سيدنا بلال ﷺ! من المحال أن يدرك قوة إيمانه إلا الذين رأوا ذلك المشهد، أو الذين منحهم الله حُبّه وحبَّ رسوله. وكان بلال ﷺ لا يرفع الأذان بعد وفاة النبي ﷺ، إذ لم يكن هناك بعد الرسول ﷺ مَن يقدّر أذانه حق التقدير، وبعد مدة مديدة أصرّ عليه المسلمون الجدد أن يرفع الأذان كما كان يرفعه في عهد رسول الله ﷺ ليستمتعوا بصوته، فرفض، فأصرّ عليه الصحابة أيضا، فرضي بعد إلحاحهم الشديد، فما إنْ بدأ بالأذان حتى تذكّرَ الصحابة عهد الرسول ﷺ، وأخذوا يبكون بكاءً مرًّا حتى صار مجلسهم مأتما. أما بلال ﷺ فلما انتهى من الأذان أُغمي عليه، ثم توفي بعد أيام. (الإصابة في تمييز الصحابة: بلال بن رباح، والاستيعاب: بلال بن رباح)

انظرْ إلى مدى تزكية نفوس الصحابة وحُبّهم العظيم للرسول ﷺ! هل من نبي يوجد بين أتباعه نظير لهذا الحب! أما في الإسلام فهناك آلاف الأمثلة كهذه!

أما أبو بكر ﷺ فكان له أيادٍ على أهل مكة كلهم، وكان ينفق ماله على تحرير العبيد، فخرج مرة من مكة مهاجرا، فلقيه أحد زعمائها، وسأله عن قصده، فأجاب: لم تعُدْ هذه المدينة آمنة لي، فأُهاجر منها. فقال هذا الزعيم: إذا خرج منها إنسان صالح مثلك فسوف يعمّها الخراب، فلن أسمح لك بمغادرتها. ثم أجاره في جواره. فكان من عادة أبي بكر أن يقرأ القرآن في الصباح، وكان أطفال الحي ونساؤه يجتمعون ويصغون إلى قراءته؛ إذ كان صوته عذبًا رقيقا مليئًا بالحزن، ثم إن الجميع كانوا يفهمون ما يقرأه، فكان لقراءته وقع عظيم فيهم. فلما شاع خبر ذلك وقعت ضجة في مكة وقالوا: إن هذا سيؤدي إلى فساد ديننا، فجاءوا إلى الزعيم الذي أجار أبا بكر وقالوا له: لماذا أجرْتَ أبا بكر؟ فإنّا نخشى أن يفتن أبناءنا ونساءنا. فأتى إلى أبي بكر وقال له: أرجوك ألا تقرأ القرآن هكذا، فهذا يثير سخط القوم. فقال أبو بكر: يمكنك إذنْ أن تستردّ إجارتك، لأني لن أترك قراءة القرآن، فاستردّ ذمته منه (البخاري: كتاب المناقب).

يا لها من آية عظيمة على تقوى أبي بكر وتزكيته! كان القوم يعادون رسول الله ﷺ عداء شديدا، ويسبّونه ويشتمونه، ولكنهم كانوا معترفين بطهارة أبي بكر، حتى تجد زعيمًا منهم يقول له: إذا خرجتَ من هذه البلدة فسيشملها الخراب.

وهذا هو حال عمر ﷺ أيضا، إذ كان الناس يثنون عليه وعلى صلاحه، ومدحُ العدو له دليل على كمال طهارته (أسد الغابة: عمر بن الخطاب).

أما عليٌّ ﷺ فكان القوم معترفين بصلاحه أيضًا. والحال نفسه فيما يتعلق بالصحابة، إذ كان القوم يعترفون بأنهم من كبار الصلحاء.

ثم إن الصحابة قد ضربوا أمثلة رائعة للصلاح والتقوى لا مثيل لها في الأمم الأخرى. فهل مِن أمة تجد فيها مثالاً للتضحيات التي قدّمها الصحابة في بدر والأحزاب وحنين؟ ففي غزوة الأحزاب كان عدد المسلمين ٧٠٠ مقاتل فقط، بينما كان جيش الكافرين مكونًا من ١٥ ألف مقاتل، فلذلك نجد "وليام موير" – العدو اللدود للإسلام– يقول بأنه من المذهل حقا أن تصدّ حفنةٌ من المسلمين هذا الجيش العرمرم! ثم يقول بنفسه بأنه لم يصدّ هذا الجيش العظيم إلا حبُّ أصحاب محمد له، إذ بلغ حبُّهم له درجة الجنون (حياة محمد لوليام موير ص ٣٢٢-٣٢٣). فكم من مرة عبر العدو الخندق وكاد أن يدكّ المدينة، ولكن الأعداء عندما كانوا يتوجهون إلى خيمة محمد كان صحابته يجتمعون حول خيمته كالمجانين، ويدافعون عنه دفاعًا مستميتا ويشتتون العدو الذي جاء بالآلاف. ولم يحدث هذا المشهد مرة، بل تكرر مرات ومرات. فحيثما نظرتَ وجدتَ الصحابة يضحّون دفاعًا عنه كالفراشات التي تتراقص حول الشمعة.

في إحدى المرات أخذ الكافرون معهم اثنين من الصحابة خداعًا، وباعوهما لقومٍ قُتل آباؤهم في حرب مع المسلمين، فلما أراد هؤلاء قتْل أحدهما اجتمعَ الجميع بمن فيهم أبو سفيان لرؤية مقتله، ولما أرادوا ضرب عنقه قال: اسمحوا لي بأداء ركعتين، فسمحوا له، فلما انتهى من صلاته قال: كنت أريد أن أطيل الصلاة ولكنني استعجلتُ كي لا تظنوا أنني أخاف الموت، ثم أنشد وقال:

ولستُ أبالي حين أُقتَلُ مسلِمًا... على أيّ جنبٍ كان للهِ مصرعي

وذلك في ذات الإله وإنْ يشأ..... يباركْ على أوصالِ شِلْوٍ ممزَّعِ

أما الصحابي الآخر الذي وقع في أيدي أهل مكة، فقالوا له: ألا تريد أن تكون جالسًا بين أهلك مطمئنا ويكون محمد مكانك هنا؟ فردّ عليهم: إني لا أحب أن يُشاكَ النبي ﷺ في شوارع المدينة بشوكة وأنا جالس بين أهلي. (مغازي الواقدي، باب مقتل خبيب)

يا له مِن دليل على قوة تزكية النبي ﷺ! فقد أحبَّه صحابته حبًّا لا مثيل له عند أُمّة على وجه البسيطة! إن الرجال عندنا حين يخرجون للحرب تبكي نساؤهم، أما نساء الصحابة فكُنَّ يحرّضنهم على الخروج للجهاد. لما سار النبي ﷺ لغزوة تبوك رجع أحد الصحابة من سفرٍ استغرق أيامًا، وبمجرد أن دخل بيته أراد مداعبة زوجته، فدفعتْه بقوة وقالت: ألا تستحي؟ لقد خرج النبي ﷺ للحرب وأنت تداعبني؟ فما كان من الصحابي إلا أن تركها وخرج من البيت ليلحق بالنبي ﷺ. فما أعظمَه من حبّ كان الصحابة يكنّونه له ﷺ!

بينما نجد أن أمة موسى عليه السلام عندما واجهوا العدو قالوا له: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:٢٥)، وإنا لن ندخل المدينة ما لم تعطِنا إياها مفتوحة.

أما المسيح عليه السلام فنجد أنه لما ألقى الجنود الرومان القبض عليه وذهبوا به، تبعه بطرس -أكبرُ حواريه الذي صار خليفةً له فيما بعد- فقال بعض القوم: خُذوه فهو أحد تلاميذه، فأُلقيَ عليه القبض، فقال: إني ألعن هذا الرجل ولا أعرفه، فتركوه. وبعد قليل قال بعض القوم ثانية: خُذوه فإنه مِن تلاميذه. فقال بطرس ثانية: إني ألعن هذا الرجلَ، فأطلَقوه. وبعد وقت قليل نبّههم بعض القوم بأنه حواري للمسيح، فأخذوه مرة ثالثة، فلعن بطرسُ المسيحَ عليه السلام للمرة الثالثة، فلما انتهى من لعنه، صاح الديك (إنجيل متى ٢٦: ٦٩-٧٥). وكان هذا في الواقع تحقيقًا لنبوءة للمسيح عليه السلام، ذلك أن بطرس كان يقول للمسيح عليه السلام إني أحبّك حبًّا ولن أتخلى عنك، فقال عليه السلام: ستلعنني ثلاث مرات هذه الليلة قبْل أن يصيح

الديك. فما إن انتهى بطرس مِن لعن المسيح عليه السلام أمام الناس ثلاث مرات حتى صاح الديك وتحقّق ما قاله المسيح عليه السلام تماما.

فشتّان بين ما قدّمه صحابة الرسول ﷺ من التضحيات والفداء وبين ما فعَله أتباع موسى والمسيح عليهما السلام!

ثم نجد بعد وفاة النبي ﷺ مشاهد تدلّ على عظمة أخلاق الصحابة. لما فتح المسلمون القدس● ولكنهم لم يستطيعوا بعدها البقاء فيها لتغيّر الظروف فانسحبوا منها، وكان ذلك في عهد سيدنا عمر رضي الله عنه. كانت هذه المدينة مركزًا للمسيحيين، وكان سكانها مسيحيين، فدعاهم المسلمون وردّوا لهم ما أخذوا منهم من ضرائب قائلين: نحن ذاهبون، وقد أخذْنا منكم هذه الضريبة بشرط حمايتكم، فلا حقّ لنا في هذه الأموال الآن. ويخبرنا التاريخ أنه لما خرج المسلمون من هذه المدينة خرج معهم النساء والأولاد لعدة أميال ليمنعوهم من الذهاب، وكانوا يدعون الله تعالى أن يرجع بهم إليهم ثانيةً. مما يعني أنهم كانوا يفضّلون أن يحكمهم المسلمون بدلاً من النصارى؛ إذ وجدوهم أهل صلاح وعدل (الخراج لأبي يوسف: فصل في الكنائس والبيع والصلبان).

المشاهدُ في العالَم أن جيوش الدول الأخرى إذا انسحبتْ من مدينة العدو، سلبتْ أهلها، أما هنا فنجد قائد الجيش المسلم يردّ لأهل هذه المدينة ما أخذوا منهم من أموال الضريبة. فما أروعَها من آية على قوة تزكية النبي ﷺ!

في إحدى الحروب عقد الكفار المحاربون المتحصنون الصلح مع أحد المسلمين الأفارقة بنيّة الخداع، ثم فتحوا باب الحصن، فلما تقدَّمَ الجيش المسلم لاقتحامه قالوا: كيف تفعلون ذلك وقد تمّتْ بيننا وبينكم هدنة؟ فقال القائد المسلم: أنا قائد الجيش، فمتى عقدت معكم صلحًا؟ قالوا: ولكنا عقدنا صلحًا مع مسلم إفريقي منكم. قال: أنا القائد، ولا يحقّ لغيري عقد صلح معكم. قالوا: نحن لا نعرف شيئا؛

● وقد وقع هنا سهو، والصحيح هو حمص، وقد ذكر حضرة المفسر رضي الله عنه ذلك في هذا الجزء نفسه في صفحة ٥٧٢. (المترجم)

لقد عقدنا معكم صلحًا، فلا يحق لكم الآن قتالنا. فرُفع الأمر إلى أمير المؤمنين عمر ﷺ فكتب في الجواب: لا أحبّ أن يُعتبر مسلم كاذبًا، فأتموا هذا العهد معهم الآن، وخُذوا الحيطة في المستقبل (تاريخ الطبري: ج٤ ذكر مصالحة المسلمين أهل جنديسابور).

لم توجد مثل هذه الأحداث في زمن الصحابة فقط، بل لقد ضرب المسلمون بعدهم أيضًا أروع أمثلة التزكية والطهارة. يقول المؤرخ الأوروبي الشهير "غِبن" عن السلطان السلجوقي المسلم "مالك أرسلان●" بأن أباه مات وعمره ١٨ سنة، فثار عليه عمّه وأخوه وأعلنا أنهما أحقُّ بالملك منه. وكان رئيس وزرائه العلامة نظام الدين الطوسي شيعيا، فقال له: تعال نذهبْ لنصلي عند قبر حضرة موسى الرضا، وندعو الله تعالى لانتصارك. فذهب وقام بالدعاء عند قبره. فلما فرغ الطوسي من الدعاء قال له إعرابًا عن إخلاصه وولائه له: أيها الملك، لقد دعوتُ الله تعالى أن يكتب لك الفتح في الحرب غدًا ويهلك عدوك. فقال الملك: ولكني يا أستاذي، لم أدعُ بهذا الدعاء. قال: فبماذا دعوتَ؟ قال: لقد دعوت: يا رب، إني لا أعلم مَن هو أكثرُ نفعًا لدينك ومُلْكك، فإذا كنتُ لا أصلح للمُلك فلا تكتبْ لي النصر في الحرب غدا، بل أَمِتْني كي لا يتضرر الناس بسببي.

وبعد كتابة هذا الحادث يقول "غبن" الذي يشير إلى المسلمين عادةً بكلمة الكافرين: هذا ما يدعو به هذا الأمير الكافر، ولكنني لا أجد بين كبار الملوك في المسيحيين المؤمنين كلهم أحدًا يفعل ما فعله هذا الشاب الكافر.

(Edward Gibben: The decline and fall of the Roman Empire page:984)

إن ما فعَله هذا الشاب إنما هو نتيجة للتزكية التي قام بها الرسول ﷺ لأتباعه، والتي لا نجد لها مثيلا عند أي نبي آخر. مما يعني أن الله تعالى قد أعطى نبيّنا ﷺ كوثرًا في هذا المجال أيضًا، وهو دليل حيٌّ على فضل النبي ﷺ على سائر الأنبياء.

● يعني حضرته ﷺ: السلطان السلجوقي ملكشاه بن ألب أرسلان. (المترجم)

ومن أدلة فضل الإسلام والرسول ﷺ أن الإسلام هو الوحيد بين الأديان الذي يدّعي اليوم بقرب الله تعالى، الذي هو الدليل الحقيقي على تزكية النفس، وهو الذي يعلن أمام العالم أن الله تعالى يكلّم عباده المؤمنين اليوم، وينزل عليهم ملائكته، ويخبرهم بأخبار المستقبل، ويُظهر لهم آياته عند المحن والشدائد. والواضح أن الشجرة تُعرف بثمارها وأن الدعوى إنما تثبت بأدلّتها، لأن كل إنسان يمكن أن يدّعي بأنه يحب الله تعالى وأنه تعالى يحبه، ولكن ما قيمة هذه الدعوى بدون الدليل عليها؟ والقرآن هو الكتاب الوحيد الذي ذكر لأتباع الرسول ﷺ الكاملين علاماتٍ يَعرف بها كلُّ ذي بصيرة أنهم محظوظون بحب الله تعالى وقربه. من المؤسف أن المسلمين قد نسوا هذه الميزة العظيمة للإسلام، وبدلاً من أن يقولوا للهندوس واليهود والنصارى بأنهم هم المحرومون من هذه الميزة العظيمة، أخذوا يقولون: إننا محرومون اليوم من هذه الميزة. مع أن الله تعالى يعلن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾(فُصّلتْ: ٣١-٣٢).. أي أن الذين يعلنون أن الله ربهم، ثم يتعرضون للأذى والاضطهاد بسبب هذا الإعلان، فيتحلون بالثبات والاستقامة والصبر بما لا مثيل له، فإن ملائكة الله تنزل عليهم وهي تقول لهم: لا تخافوا مما سيحدث لكم مستقبلا، ولا تحزنوا على ما فاتكم من قبل، بل استبشِروا وتَهلّلوا بالجنة التي وعدكم الله بها.

والسؤال هنا: أين ستكون هذه الجنة الموعودة لهم؟ هل يدخلونها في هذه الدنيا أم في الآخرة، أم في كلتيهما؟ لقد أجاب الله على هذا فقال هنا بأن هذه الجنة لن تكون في الآخرة فقط -كما يزعم غيرنا من المسلمين- بل تقول ملائكة الله للمؤمنين: سوف نكون معكم في هذه الدنيا وفي الآخرة أيضا؛ فقد أمرنا الله تعالى بنصرتكم هنا وهناك، مما يعني أن لفظ الجنة قد ورد لهذه الدنيا وللآخرة أيضا. هكذا يعامل الله تعالى الأفراد الكاملين من هذه الأمة، وسيظل يعاملهم هكذا. ولن يتم هذا في الآخرة فقط، بل يحدث في هذه الدنيا وفي الآخرة أيضا.

فقد كشف الله تعالى هذه الحقيقة في آية أخرى إذ قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾(الرحمن:٤٧).. أيْ جنّةٌ في هذه الدنيا وجنّةٌ في الآخرة. فالقول بأن الجنة تكون في الآخرة فقط قولٌ باطل، لأن الله تعالى قد صرّح هنا أن المؤمن سينال الجنة في هذه الدنيا وفي الآخرة أيضا. إذا كانت لنا الجنة في الآخرة فقط، فما هو الدليل الذي يمكن أن نقدّمه لأهل دين آخر إذا قال: إنني لا أؤمن بالآخرة؟ فما لم نُرِه أن نصرة الله وتأييده حليفنا هنا في هذه الدنيا، فلن يثق بوعود الآخرة. أما لو أريناه ما خصّنا الله به من معاملة مميزة وتأييد ونصرة في هذه الدنيا فلا مناص له من الإقرار بأن الله تعالى سيعاملنا وينصرنا هكذا في الآخرة أيضا.

والحق أن هذا وعدٌ عظيم قُطع للمؤمنين؛ حيث أخبر الله تعالى بأنهم مع ضعفهم وقلّة حيلتهم سيكونون هم الغالبين، ولن يكون إلا ما يريدون، وستكون كلمتهم هي العليا، وسيصبح أعداؤهم في النهاية من الخائبين.

إن هذه الدعوى لقرب الله تعالى وعلاماتها البارزة التي ذكرها القرآن الكريم لا توجد في أي دين غير الإسلام، مما يدل على أن التزكية الحقيقية لا تتيسر إلا لأتباع النبي ﷺ فقط.

ثم لا بد لتزكية الآخرين أن يكون الداعي إليها نفسُه مزكًّى، إذ لا يقدر على تعليم الآخرين إلا المتعلِّم. وعندما ندرس حياة النبي ﷺ من هذا المنظور، نجد أن الله تعالى قد أعطاه كوثرًا في هذا المجال، بل إن الله تعالى بحكمته ومشيئته قد اختبره في شتى الظروف لتعرف الدنيا أنه ﷺ كان مزكًّى حقًّا.

١: إن أول دليل على كونه ﷺ مزكًّى، نجده في ريعان شبابه؛ فقد عاش حياة العزوبة ٢٥ سنة، وقد حافظ خلالها على عفّته بحيث لا يقدر أي عدو أن يتهمه بالاختلاط بأي امرأة أو الحديث غير اللائق معها، دَعْ عنك علاقات غير مشروعة. لقد قضى الفترة التي كان فيها ممتلئًا قوةً وشبابًا وهو عازب، ومع ذلك لم يُتَّهم بشيء، بينما نجد أن عيسى عليه السلام -الذي رُفع حيًّا إلى السماء عند البعض، ومات على الصليب ثم أُعيد إلى الحياة ورُفع إلى السماء عند الآخرين- فيقول الإنجيل عنه إنه كان يعيش بين النساء دائمًا، فكُنَّ يقمن بتدليك جسمه ورأسه ويمسحنه

بالزيت والعطر (لوقا ٧: ٣٨). فشتان بين محمد رسول الله ﷺ الذي لم يستطع العدو أن يَصِمَه بشيء في مدة خمس وعشرين سنة من حياته التي عاشها عازباً، وبين المسيح عليه السلام الذي يقول عنه الإنجيل نفسه ما لا يليق بمقامه. لا شك أننا نؤمن أن المسيح عليه السلام قد عاش حياة طهر وعفاف، إلا أن محمدا رسول الله ﷺ كان أكثر منه طهارةً وعفّةً. والفرق بين العفيف والأعفّ بيّنٌ. كان عيسى عليه السلام عفيفًا، أما الرسول ﷺ فقد أُعطي الكوثر في العفة.. أي لقد بلغ ذروة العفة، فشتان بينهما.

٢: كان النبي ﷺ فقيرا، ولكنه تحلى بالاستغناء الشديد رغم فقره. كانت عائلته من سدنة الكعبة (السيرة النبوية لابن هشام: غلب قصي بن كلاب على أمر مكة...)، ولكن ليس بوسع أحد أن يثبت أنه ﷺ سأل أحدًا شيئا قط، أو تمنى أن يسأل أو يأخذ من أحد شيئا. عندما توفي أبوه كفله جده عبد المطلب، وبعد وفاة جدّه عاش عند عمه أبي طالب، ولكن ليس بوسع أحد أن يثبت أنه سأل أحدا شيئا. كان أبو طالب يحبّ النبيّ ﷺ جدًّا بسبب وصية أبيه، وأيضًا بسبب صلاحه ﷺ، فكان أعزَّ عليه مِن أولاده. كان سنّه ﷺ عندها ٨ سنوات أو ٩، وكان أبو طالب يحضر إلى البيت في بعض الأحيان، ويرى زوجته توزّع شيئًا على أولادها ومحمدٌ ﷺ جالس في ناحية بمنتهى الوقار، فكان يتوجه إليه ويحتضنه من فرط حبه ويقول لزوجته: لَمْ تعطِي ابني شيئا؟! أما النبي ﷺ فلم يكنْ يبالِي بذلك مطلقا. هذه خصاله في الصغر. أما بعدما بلغ أشُدَّه تحلى بخُلُق الاستغناء، وكان من نتيجة استغنائه أن البلد كله سماه "الأمين" إذ كان منَزَّهًا عن أي طمع وجشع، ويدفع أمانات الناس إليهم كاملة. ثم سموه "الصادق المصدوق" (البخاري: كتاب التفسير، والسيرة النبوية لابن هشام: حديث بنيان الكعبة). وهذا دليل بين على كونه ﷺ مزكًّى.

٣: ومما يدلّ على سموّ خُلقه وعظيم تزكيته أنه ﷺ تزوج سيّدةً بلغت الأربعين، بينما كان هو في ريعان شبابه، فكان أحسنَ زوج.

رُبَّ خصمٍ يقول هنا: لقد تزوّجَها محمد (ﷺ) طمعًا في مالها، ولكن الأحداث تؤكد أنه لم يرغب في مالها قطّ، إنما الواقع أن خديجة هي التي تزوجته لصلاحه وأمانته. كان أثرياء قريش يبعثون مندوبيهم في القوافل التجارية، وكانت خديجة امرأة ثريّة وأرملة لأحد الأثرياء. وكانت تبعث مندوبيها في هذه القوافل، فلما سمعتْ عن صلاح النبي ﷺ وأمانته، أرسلته مرةً مندوبا لها مع القافلة ليتولى أمر تجارتها، فربحتْ في هذه المرة أرباحًا قياسية، فسألت خدمها الذين رافقوا النبي ﷺ في هذه الرحلة عن سبب الأرباح غير العادية، فقالوا إنها ببركة هذا الرجل؛ فمن عادة مندوبي الناس أنهم إذا وجدوا صفقة رابحة استثمروا أموالهم الشخصية فيها، أما هذا الرجل فلم يفعل ذلك، بل كلما وجد صفقة رابحة استثمر أموالكِ، وكنا مِن قبل نأكل من أموالكِ بغير حق، لكنه نهانا عن ذلك، كما لم يأكل منها، بل كان يقول لنا بأن المال كله لصاحبه، ولن أعطيكم منه إلا ما وافق عليه سلفًا، فالنتيجة هذه الأرباح القياسية. هذا الأمر ترك في خديجة وقعًا كبيرا، ففكّرت في الزواج من النبي ﷺ. فاستشارت صديقاتها، فأخبرنها أنهن قد سمعن الكثير عن حسن سيرته، فلا حرج في زواجها منه. ثم بعثتْ خديجة إحدى صديقاتها إلى أبي طالب، فقالت له: ما رأيك في زواج خديجة من ابن أخيك؟ قال: إن زواجها منه مستحيل، فهي امرأة ثرية، وابن أخي لا يملك شيئا. قالت: أترضى بهذا الزواج؟ قال: يا ليت. ثم ذهبتْ صديقتها إلى الرسول ﷺ وقالت: ما رأيك بالزواج من خديجة؟ قال: إنها امرأة ثرية وأنا فقير، فكيف نتزوج؟ قالت: إذا رضيت خديجة فهل ترضى؟ قال: إذا كانت هذه رغبتها فأنا راضٍ. فتفاوضَ الأقارب من الطرفين وتم الزواج. مما يعني أن زواج النبي ﷺ من خديجة كان نتيجة صدقه وصلاحه، وليس أنه ﷺ تزوّجَها طمعًا في مالها.

ثم مع أن الفارق بين عمره ﷺ وعمرها كان ١٥ سنة؛ إذ كان سنه ٢٥ وسنها ٤٠، ومع أنها دخلت بعد عشر سنوات من الزواج في سن الكهولة -وهي مرحلة تتجاوز فيها المرأة سنَّ الزواج- إلا أنه ظلّ وفيًّا لها ومحافظًا على هذه العلاقة بما يندر له مثيل. لقد تُوفيت خديجة -رضي الله عنها- قبل الهجرة بنحو ثلاث

سنوات، أي بسنّ ٦٥ سنة، والمرأة في هذا السن تصبح عجوزا وتفقد بريق حسنها وجمالها الذي يخلّد ذكراها في قلب الرجل، ومع أن النبي ﷺ قد تزوج بعد وفاتها عدةَ نساء بعضهن فتِيَّات وجميلات، إلا أنه ظل يذكر خديجة بمنتهى الحب والتقدير قائلا: أما خديجة! فلا مثيل لها (السيرة النبوية لابن هشام: حديث تزويج رسول الله خديجة ﷺ، والسيرة الحلبية: ج١ باب ذكر وفاة عمه أبي طالب وزوجته خديجة). كانت عائشة -رضي الله عنها- زوجة شابة جميلة مطيعة وفيّة للنبي ﷺ، ثم هي بنت أبي بكر، وكان النبي ﷺ أيضا يحبّها، ولكنها تقول: كنتُ أتضايق من كثرة حديث الرسول ﷺ عن خديجة وأقول له: يا رسول الله، لقد أعطاك الله زوجات أفضل من خديجة، فلماذا لا تبرح تذكرها؟ فكان ﷺ يقول دائما: عائشة، وما يدريك وفاءها لي! إنك تتضايقين من كثرة حديثي عنها، ولكني لا أقدر على نسيانها.

وفيما كان النبي ﷺ جالسًا عند عائشة -رضي الله عنها- ذات يوم حتى دقّ أحدٌ الباب واستأذن، وكانت هذه أختَ خديجة وكان صوتها يشبه صوتها!، فتغيّرَ وجه النبي ﷺ بسماع صوتها وقام بسرعة قائلاً: ربّ، أهي خديجتي؟ لقد تذكّرَ خديجة بسماع الصوت واغرورقت عيناه رغم انقضاء ١٢ سنة على وفاتها (البخاري، كتاب المناقب).

هذا هو نموذج وفاء الرسول ﷺ لزوجته خديجة رضي الله عنها. لم تكن عند وفاتها ذات جمال، إذ توفيت في الـ ٦٥ من عمرها، إذا توفيت المرأة في شبابها فيمكن أن يذكرها زوجها لجمالها، ولكن الوضع كان مختلفا هنا، فقد توفيت زوجته حين لم يكن قد بقي فيها جمال يجذبه ﷺ، ومع ذلك كان شديد الحب لها بحيث إذا سمع صوتًا مشابهًا لصوت خديجة بعد وفاتها بـ ١٢ سنة، فلم يملك نفسه، فتغيرَ وجهه، وهبَّ مسرعا وهو يقول: إلهي، هذه خديجتي! ثم فكّر وقال: أنت فلانة! قالت: نعم، يا رسول الله، أنا أخت خديجة.

هذا الحادث دليل بيّن على ما كان يكنّه لخديجة من وفاء لم يسبق له نظير في الأنبياء فضلاً عن العامة. إن المسيح عليه السلام لم يتزوج مطلقًا بحسب الإنجيل، غير أن

هناك احتمالاً أن تكون النسوة اللاتي كن يعشن حوله كل حين زوجات له، وإن كان هذا أمرًا غير موثّق. ثم ليس هنالك ما يدل على وفائه عليه السلام لهن. فثبت أن النبي ﷺ وحده الذي تحلّى بهذا الوفاء الذي لا مثيل له في العالم.

٤: كانت خديجة -رضي الله عنها- شديدة الذكاء. لما تزوّجَها النبي ﷺ أدركتْ أنه سوف يضطر لسؤالها عند الحاجة كونها غنية وهو فقير، ولعله لن يطيق ذلك، فكيف يعيشان حياة هادئة، ففكّرت أن تضع كل ثروتها في يده، لأنه في هذه الحالة لن يفكّر أن هذا مال زوجته، بل يتصرف فيه كيفما يشاء. فلم تمض على زواجهما إلا أيام حتى قالت للنبي ﷺ: اسمح لي بتقديم اقتراح لك. قال: هاتِ. قالت: لقد قررتُ أن أضع كل مالي وعبيدي تحت تصرفك حتى يصير مِلْكًا لك، وإذا قبلته مني فهذا مدعاة سروري. فقال ﷺ: يا خديجة، فكّري جيدا، لأنك إذا وضعتِ مالك في يدي فيصبح ملكًا لي لا لك. قالت: لقد فكّرتُ جيدا، ورأيت أن هذا هو أفضلُ سبيل لنجاح حياتنا الزوجية. قال: أعيدي النظر ثانية. قالت: لقد فكرتُ جيدا. قال: فما دمتِ قد وهبتِ لي كل أموالك وعبيدك فإني لا أحبّ أن يُدعى أي إنسان مثلي عبدًا لي، فأول ما أفعله أني سأقوم بتحريرهم جميعا. قالت: لقد أصبح كل شيء مِلْكا لك، فتصرّفْ فيه كما شئت. فغمرته الفرحة بقولها، فخرج إلى الكعبة وأعلن أن خديجة قد وهبتني أموالها وعبيدها، وها إني أحررهم جميعا.

لو نال أحدٌ اليوم مالاً لفكَّر في شراء سيارة أو بناء بيت أو رحلة إلى أوروبا، ولكن انظرْ إلى النبي ﷺ فإنه قال في نفسه: لماذا يبقى عباد الله الذين يملكون العقل مثلي عبيدًا للآخرين؟ و لم يكن هذا الأمر غريبا بالنسبة إلى العرب فقط، بل للعالم كله، ولكنه فَعَلَ هذا الغريب، كما أنفق ماله على الفقراء بسخاء أيضا.

٥: عندما أعلن النبي ﷺ أنه حرّر جميع العبيد الذين عنده، لحقوا جميعا بأهليهم إلا زيد بن حارثة الذي دُعي فيما بعد بزيد بن محمد، فجاء إلى النبي ﷺ وقال: لقد حرّرتني، ولكنني لا أريد هذه الحرية، بل سأبقى معك. فأصرَّ عليه النبي ﷺ أن يعود إلى بلده وأهله لأنه حرٌّ الآن، ولكنه قال: لقد أصبحتَ أحبَّ إليَّ مِن كل حبيب

بعدما رأيت منك من حب وإخلاص. كان زيد ﷺ من عائلة غنية، ولكن اللصوص خطفوه في صغره وباعوه، فلم يزل يباع من شخص إلى آخر حتى وصل خديجة، رضي الله عنها. فلم يزل أبوه وعمه يبحثان عنه في كل مكان، حتى ذهبا إلى بلاد الروم، ثم أتوا إلى مكة، حتى وصلا إلى الرسول ﷺ، وقالا له: لقد سمعنا عن نُبْلك وكرمك، وإن ابننا عبدٌ عندك، فنرجوك أن تطلق سراحه بأي ثمن شئتَ، فأُمُّه العجوز قد عميت من كثرة البكاء عليه. فقال ﷺ: إن ابنكم ليس عبدًا لي، بل قد أعلنت أنه حرٌ. ثم دعا زيدًا وقال له: ها قد جاء أبوك وعمك، فارجعْ معهما إلى أهلك، فإن أمك العجوز قد فقدت البصر من كثرة البكاء عليك. لقد أعلنت من قبل أنك حر، فاذهبْ معهم. قال زيد: لقد حررتني، لكني لا أريد أن أتحرر، بل أعتبر نفسي عبدا لك. فقال النبي ﷺ: لكن أمك تعاني بسبب فراقك، ثم انظرْ كيف جاء أبوك وعمك متكبدين وعثاء السفر الطويل، فاذهبْ معهما. ثم نصحه أبوه وعمه كثيرا، ولكنه رفض الذهاب معهما قائلاً: لا شك أنكما أبي وعمي، وإني أحبكما، ولكني لا أستطيع قطع أواصر القرابة التي نشأت بيني وبين محمد ﷺ. إني حزين بأن أمي تعاني بسبب فراقي عناء شديدًا، ولكني لن أحيا بفراق محمد ﷺ. فلما سمع النبي ﷺ مقالة زيد ذهب إلى الكعبة وأعلن أن زيدا ابنه منذ اليوم لما رأى منه مِن حُبٍّ نادر. ففرح أبوه وعمّه ورجعا مسرورين، إذ وجداه يعيش مع النبي ﷺ فرِحًا مرتاحًا. فمِن سموّ أخلاق النبي ﷺ أنه أحسن إلى زيد لما رأى منه هذا الوفاء العظيم (الطبقات الكبرى لابن سعد: ج٣ طبقات البدريين من المهاجرين).

٦: ثم لما نزل الوحي على النبي ﷺ تصرف بتواضع لا مثيل له. إننا نرى أن بعض الناس إذا تلقّى إلهاما أو رأى رؤيا، سارع إلى الآخرين ليخبرهم بأنه قد تلقى وحيًا كذا أو رأى رؤيا كذا، أما النبي ﷺ فلما جاءه جبريل وقال له: اقرأْ، أجاب: ما أنا بقارئ، حتى أعاد عليه جبريل قوله ثلاثا، فلما رأى ﷺ أن الله تعالى يريد ذلك منه في كل حال، استجاب لأمره بشجاعة نادرة، فلم يقل كما قال موسى

عليه السلام: ربِّ أعطِني وزيرا مساعدا، بل تقدّم وحمل هذه الأمانة وحده دون أن يسأل الله تعالى أي مساعد.

٧: ولما عرض النبي ﷺ دعواه على الناس عارضوه معارضة شديدة، فصبر عليها صبرًا خارقًا. لقد تعرض لصنوف الأذى والتعذيب، ولكنه تحمّلَها بصمت مذهل. ففي إحدى المرات كان جالسًا على حجر بالقرب من الكعبة، فجاء أبو جهل يسبّه ويشتمه، وكان النبي ﷺ مستندا إلى خدّه، فظلّ جالسا كما هو ولم يردّ عليه بشيء. فازداد أبو جهل غضبًا، فضرب النبيَّ ﷺ بقضيب في يده، وأوسعَه سبًّا، ومع ذلك لم يرفع ﷺ يده دفاعا، وإنما قال: أتنقمون مني أني أبلّغكم رسالة الله؟ ومع ذلك لم تهدأ ثائرة أبي جهل، وظلّ يكيل له الشتائم حتى سئم منه وذهب. وكانت أَمَةٌ لحمزة -عم النبي ﷺ- قد سمعت هذه الضجّة، فخرجت من البيت ورأت وسمعت كل ما دار بينهما، فآلَمَها ذلك وظلّتْ تغلي غضبًا، وتنتظر بفارغ الصبر عودة حمزة الذي كان قد خرج للصيد. كان حمزة رضي الله عنه قد سمع عن دعوى الرسول ولكنه لم يُلق لها بالاً، إنما كان يستمتع بالقنص والصيد ليل نهار. وفي المساء رجع حمزة إلى البيت والقوسُ على كتفه والصيدُ في يده وكأنه قائد رجع من المعركة، فاستقبلته أَمَتُه -والإماء اللاتي يعملن في البيوت طويلاً يصبحن كأهل البيت، فيتكلمن معهم كما يردن دونما تردد وخوف- فقالت له: أتظنّ نفسك بطلاً مغوارًا؟ هل قَتْل الحيوانات بطولة؟ فكل واحد يمكن أن يصيدها. فها هو ابن أخيك قد سبّه أبو جهل اليوم سبًا شديدًا وضرَبه، فظلّ صامتًا ولم يردّ عليه بشيء؛ أما أنت فتلهو بالصيد! فقال حمزةُ: أخبريني ماذا حدث؟ فقصَّتْ عليه ما حدث. فثارت غيرة حمزة، فخرج من توّه إلى الكعبة، فوجد أبا جهل يتحدث مع زعماء مكة الآخرين، فلما رأوه أفسحوا له المجال لأنه أحد زعمائها. فتقدمَ حمزةُ إلى أبي جهل وضرب وجهه بقوسه قائلا: سمعت أنك قد ضربتَ ابن أخي فظلّ صامتًا لم يردّ عليك، فها إني قد ضربتُ وجهك بقوسي أمام القوم فتعال وانتقمْ مني إن استطعتَ. فغضب القوم تعصبًا لدينهم وأرادوا أن يتصدوا لحمزة، ولكن أبا جهل منعهم قائلا: بالفعل قد أسأت إلى محمد اليوم، وإني نادم على ما فعلت. ثم رجع

حمزة من الكعبة في فورة حماسه إلى الرسول ﷺ، وقال يا رسول الله، ها إني أؤمن بك. وكان إيمان حمزة نتيجة الصبر الخارق الذي تحلى به النبي ﷺ (السيرة الحلبية: ج١ باب استخفائه ﷺ وأصحابه في دار الأرقم بن أبي الأرقم).

٨: لما رفض القوم سماع كلام النبي ﷺ لم يأخذه اليأس، مع أن ضعاف القلوب يصابون بالقلق عادة ويقولون: كيف نقوم بنشر الدعوة والناس لا يصغون لنا؟ أما الرسول ﷺ فلم يصبه قلق ولا يأس، بل ظلّ مثابرا على أداء مهمته بثبات. لقد نذر حياته لهذا الهدف، وظلّ منهمكا في نشر الدعوة ليل نهار. كان يخرج إلى سوق عكاظ لدعوة الناس إلى الله الأحد، وكلما رأى مجموعة من الناس ذهب إليهم وقال: أتسمحون لي أن أُسمِعكم شيئًا من كلام الله. فكان القوم يتغامزون فيما بينهم بأنه ذلك المجنون المكيّ، ثم يتسللون، إذ كان أهل مكة قد أشاعوا بين الناس أنه ﷺ مجنون، والعياذ بالله. فكان يتوجه إلى مجموعة ثانية ثم ثالثة، فكان الجميع يفعلون به ما فعله الأولون، رافضين سماع كلامه، ولكنه ﷺ ظل مثابرًا على دعوتهم حتى خرج منهم في الأخير قوم آمنوا به وقدّموا للإسلام خدمات عظيمة. إن مثابرته النادرة هي التي جعلته ناجحا في الأخير. وهذه الاستقامة العجيبة هي التي يقول عنها الناس إنها أعظم المعجزات. وبالفعل، لا تنجح الدعوة من دون مثابرة تُشبِهُ الجنون (البداية والنهاية: ج ٣ عرض رسول الله نفسه الكريمة على أحياء العرب).

٩: لما آذى القومُ النبيَّ ﷺ وصبّوا عليه أنواع الظلم، تحلّى بضبط النفس وظل ناصحًا للقوم بشكل خارق. فلما ذهب إلى الطائف ودعا أهلَها إلى الله تعالى حرّشوا عليه الكلاب، ورشقوه بالحجارة، فرجع من عندهم وغوغاؤهم يرشقونه وكلابهم تطارده. فثارت غيرة الله تعالى، فأمر ملائكته أن اذهبوا إلى رسولي وانصروه. فرأى ﷺ ملاكًا يقول له: إني المَلَك المسؤول عن هذا الجبل الذي أمامك، وقد أرسلني الله تعالى لنصرتك، فلو أمرتَني ألقيتُ هذا الجبل على الطائف وأهلكت أهلها. فقال النبي ﷺ: كلا، إذا هلك هؤلاء فمن يؤمن بي؟ كان جسده

ﷺ قد أُصيب بالجروح من رأسه إلى قدميه، وكان الدم ينـــزف، ومع ذلك ظـــل مشفقًا على أهل الطائف وناصحًا لهم، ولم يرد أن يهلكهم الله بعذابه.

وكانت أراضي الطائف زراعية، وكان بعض رؤساء مكة قد اشتروا بعضًا من أراضيها، وكان لأحد رؤساء مكة بستان خارج الطائف على بعد ٧ أو ٨ أميال، فجاء النبي ﷺ ومعه زيد ليستريح هناك، وكان صاحبُ البستان مِن أعداء النبي ﷺ، ولكنه لم يُطِقْ رؤية هذا المشهد الدموي، فدعا أحد عبيده وقال له: خُذْ مِن أطيب العنب واذهبْ به إلى هذين. وكان هذا العبد من أهل نينوى، فلما جاء إلى الـــنبي ﷺ سأله عن وطنه؟ فقال أنا من أهل نينوى؟ فقال النبي ﷺ: إذن، أنت مِن بلـــد أخي يونس عليه السلام! تعالَ أُسمِعُك مِن كلام الله تعالى. لقد بدأ ﷺ بدعوتـــه ناســـيًا جروحه وإرهاقه. كان هذا العبد مسيحيا، وكان قد سمع الأنباء المتعلقـــة بـــالنبي الموعود، فتأثر من كلام النبي ﷺ جدا حتى خرَّ على قدميه وأخذ يمسح عن رأســـه الدم ويقبّل شعره. فرآه سيده وكانت جذوة الشفقة قد خبتْ في قلبه، فقال لعبده: هذا المجنون من مكة ومن أقاربي، فلا تصدّق كلامه. فقال العبد: إنه ليس مجنونـــا، بل إنه يتكلم بكلام الأنبياء (السيرة الحلبية: ج٢ باب ذكر خـــروج الـــنبي ﷺ إلى الطائف).

كم كان النبي ﷺ ناصحًا لقومه، وكم كان شديد الضبط لنفسه! لقد ظلمـــه أهل الطائف ببشاعة حيث حرّشوا عليه الكلاب ورشقوه بالحجارة، ومع ذلك دعا لهم قائلا: ربِّ ارحم قومي فإنهم لا يعلمون أنني نبيك، إذ لو علموا لم يفعلوا مـــا يفعلون.

١٠: ثم كم كان النبي ﷺ ناصحًا لصحابته لما تعرضوا لاضطهاد القوم. عنـــدما يتعرض الناس لظلم الآخرين يجمعون حولهم أنصارهم ليحموهم من الظلـــم، أمـــا النبي ﷺ فنصح أصحابه بالهجرة إلى الحبشة وألا يقلقوا عليه. فهاجرَ معظم الصحابة ولم يبق مع النبي ﷺ في مكة إلا بضعة منهم (السيرة النبوية لابن هشام: ذكر الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة).

١١: وعندما حانت هجرته ﷺ من مكة -التي كانت وطنه العزيز، وكانت سببًا في مجد آبائه، وفيها الكعبة التي كان يعبُد الله فيها في بعض الأحيان- ضحّى بحبّ وطنه أيضا بشجاعة لا مثيل لها. أما مدى حبه ﷺ لوطنه فيكفي عليه دليلاً أنه لما خرج من غار ثور متوجهًا إلى المدينة قال أبو بكر: لعن الله قرية عارضت نبيها حتى طردته منها. فقال النبي ﷺ: لا تقلْ هكذا يا أبا بكر. ثم قام النبي ﷺ متوجها إلى مكة، وقال: أنت أحبُّ بلاد الله إليّ يا مكة، ولكن أهلك لا يدَعونني أعيش فيك.

ما أروعَه من مثال لحبّ الوطن! ولكنه ﷺ قد ضحّى بهذا الحب لوجه الله تعالى ببسالة.

١٢: ثم لما وصل النبي ﷺ إلى المدينة فما لبث أن جمَع أهلها ونظّمهم، فأقرّ حقوقا للمهاجرين، وعقَد معاهدة مع اليهود اتقاءً لشرورهم؛ وهكذا تجلى ذكاؤه الفذّ بما لا مثيل له في العالم. لم يجد في مكة فرصة لتنظيم سكان حارة واحدة، أما في المدينة فبدا كأنه مِلِكٌ مجرَّب ومدير عبقري، فقام بتنظيم أهل المدينة الذين كانت القبائل الأخرى تستضعفهم وتقهرهم دائما، حتى أصبحوا قوة يحسب لها حساب بين العرب جميعا (السيرة النبوية لابن هشام: باب هجرة الرسول ﷺ).

١٣: ثم لما بدأت الحروب دلّل ﷺ على شجاعته الخارقة. فلو تُوفّيَ قبل تَولّي المُلك لقال الناس إنه صبر على الشدائد بسبب ضعفه، ولكنه أثبتَ بعد تولّي الحكم أنه لم يصبر و لم يعفُ عن ضعف، وإنما عن حلم ورحابة صدر.

لما تمكّن النبي ﷺ من الهجرة إلى المدينة أخذ أهل مكة يبعثون الكتائب في كل طرف دفعًا للعار الذي لحق بهم، فاضطر النبي ﷺ لقتالهم دفاعًا، ولكنه ضرب في هذه الحروب أروع أمثلة في الخُلق الحسن. إن كبار الملوك أيضا لا يتورعون عن الإغارة ليلا، ولكنه ﷺ لم يُغِرْ ليلا.

ومما يدل على ذكائه الخارق أنه خاض عشرات الحروب في ثماني سنوات متتالية، ولكن لم يحدث مرة واحدة أن شنّ هجوما وعلم به الكفار مسبقًا، أو أنهم فاجأوه بالهجوم. المستغرب أن الكفار كلما جهزوا للإغارة عليه علم بذلك، فذات

مرة أعدّت بنو المصطلق عُدّتهم ليفاجئوه بالهجوم، وكان النبي ﷺ على بُعْد عشرة منازل منهم أو اثني عشر، ومع ذلك فاجأهم الرسول ﷺ وهم لا يزالون يجهزون للخروج ونساؤهم يعملن العجين في بيوتهن، ولم يخطر ببالهم أن محمدا ﷺ يمكن أن يباغتهم هكذا (البداية والنهاية: ج ٤ غزوة بني المصطلق).

ثم لما خرج لفتح مكة كان خروجه مفاجئًا جدًّا، حتى إن الكافرين لما رأوا الجيش المسلم من بعيد قالوا لأبي سفيان: لعل هذا جيش المسلمين؟ فقال: كلا، فقد جئتُ من المدينة قبل قليل، ولم أرَ هناك أي تجهيزات للحرب. وبينما هو يحدّثهم حتى أتى جنود المسلمين وألقوا القبض عليه. كان أهل مكة جالسين مطمئنين في بيوتهم وهم يظنون أن أبا سفيان قد ذهب إلى مكة ولم يتوقعوا أي هجوم، ولكن الرسول ﷺ دخل مكة في اليوم الثاني بجيش عظيم.

باختصار، ليس هناك مثال واحد في عشرات الحروب التي خاضها النبي ﷺ في ثماني سنوات أن خرج لمهاجمة العدو فعرف العدو بذلك مسبقا، أو هاجمه العدو ولم يعرف ﷺ بهجومه مسبقا؛ الأمر الذي لا يوجد له نظير في تاريخ الدول ولا الأديان.

١٤: وبعد وصوله ﷺ إلى المدينة قد أكّد على استغنائه وتقواه الخارقيْن: أعجبته قطعة أرض لأيتام صغار، فدعا الوصي عليهم، فقال: يا رسول الله، إنها لأبناء أخي الأيتام، ولكنهم يهَبُونها لك عن طيب نفس. فقال ﷺ: ولكنا لا نأخذ أموال اليتيم، ويمكنهم أن يبيعوها لنا إذا أرادوا.

١٥: كان ﷺ يراعي مشاعر الآخرين كثيرا؛ فلما هاجر إلى المدينة أقام في بيت الصحابي أبي أيوب الأنصاري، فعرض عليه أن يسكن في الطابق العلوي ويقيم أهله في الطابق الأرضي، فقال ﷺ: لا، بل أفضِّل الطابق الأرضي، لأن الناس يأتون لزيارتي بكثرة، مما سيزعجكم. فقال: يا رسول الله، كيف نرضى أن تسكن في الطابق الأرضي ونسكن أعلى منك؟ ولكن الرسول ﷺ لم يقبل عرضه. وفي إحدى الليالي أهرق أهل البيت ماءً كثيرا خطأً، فخاف الأنصاري أن يتساقط الماء من السقف إلى الطابق الأرضي حيث الرسول ﷺ، فأخذ هو وزوجته لحافهما وقام

بتجفيف أرضية الغرفة وباتا من دون لحاف، فلما علم النبي ﷺ بذلك تحرّجَ وقال: حسنًا، سأقيم في الطابق العلوي وتقيمون في الطابق الأرضي. مما يعني أنه ﷺ قد تحلّى بأسمى الأخلاق في الحالتين؛ فلم يرضَ أولاً بالسكن في الطابق العلوي من أجل راحة الأنصاري وأهله، وفي المرة الثانية عندما علم بمعاناتهما رضي بالمبيت في الطابق العلوي من أجل راحتهما (البداية والنهاية: ج٣ فصل في دخوله عليه السلام المدينة وأين استقر منزله).

١٦: كان حبه ﷺ لوحدانية الله منقطع النظير. لا شك أن كل نبيّ يُبعث لإرساء الإيمان بالله الأحد في الدنيا، وهذا ما تتفق عليه الديانات كلها إلا المسيحية التي يدعي أتباعها اليوم أن عيسى عليه السلام جاء لإرساء عقيدة الثالوث، مع أنه لا أثر للثالوث في أقوال المسيح عليه السلام في الأناجيل، بل إن دراستها تكشف أنه بُعث لإقامة وحدانية الله تعالى، وهو نفسه يقول: "لا تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ" (مَتَّى ٥: ١٧). وما دام عليه السلام قد جاء تابعًا لأحكام التوراة، فمن المستحيل أن يبدّل أي كلمة منها. والتوراة تعلّم وحدانية الله تعالى، ولا ذِكر للثالوث فيها. المهم أن كل نبي يبعث لإقامة وحدانية الله في العالم، إلا أنه ليس هناك نبي يمكن أن يجاري رسولنا ﷺ في إرساء التوحيد والغيرة على وحدانية الله تعالى. لقد علّم المسيح عليه السلام وحدانية الله تعالى بطريقة أثارت شبهةَ الشرك في تعليمه، لذا أصبح المسيحيون وثنيين بمرور الأيام، وتَخَلَّوْا عن وحدانية الله كليةً. لا شك أن الشرك قد سرى إلى المسلمين أيضا، ولكنه شركُ الجهال منهم، سواء من العوام أو من المشايخ، أما الشرك الموجود في المسيحية، فهو عند كبار علمائهم. ثم هناك فرق آخر بين الأمتين في هذا المجال، فمع سريان الشرك إلى المسلمين، إلا أنه يوجد بينهم علماء حاربوه بشدة. فخذوا مثلاً حضرة عبد القادر الجيلاني رحمه الله، فكُتبه مليئة بالحثّ على وحدانية الله تعالى، فلا يمكن أن ينخدع أحد بوقوع بعض مريديه في الشرك، لأنه إذا وقع فيه أحدهم، وضعنا أمامه كُتبه وقلنا: إن حضرته كان موحدا عظيما، فعليك أن تتّبعه بصدق. مما يعني أن هناك فرصًا لكشف أخطاء المسلمين الذين وقعوا في الشرك. أما المسيحية فإن كبار

علمائها وحتى البابا الحالي ومَن سبقه من عشرات الباباوات، قد وقعوا في الشرك. وهذا الشرك المسيحي ليس من قِبل الجهال، بل من قبل كبار علماء المسيحية، ومن أجل ذلك من الصعب بمكان كشفُ خطأ الشرك على المسيحيين، وأما كشفُ خطأ الشرك على المسلمين فسهل جدًا.

المهم أن أكبر دليل على غيرة الرسول ﷺ على وحدانية الله تعالى، أنه ظل يحث على التمسك بالتوحيد في أحلك الظروف أيضا. ففي غزوة أحد كتب الله النصر للمؤمنين وهزم الكفار في أول الأمر، وكان النبي ﷺ قد عيّن جماعة من الرماة لحماية ممر جبلي هناك، وأوصاهم ألا يتركوه سواء أانتصر المسلمون أم هُزموا، وسواء أُقتلوا أم نجوْا. وكان المسلمون متحمسين للاشتراك في الجهاد، فلما كتب الله النصر للإسلام، قال هؤلاء الرماة لأميرهم: دَعْنا نشترك في الجهاد قليلاً، فقد كتب الله النصر للإسلام، ولم يبق هناك خطر. فقال: لقد أمرنا رسول الله ﷺ بعدم التحرك من هنا في أي حال، فيجب أن نبقى هنا. قالوا: لم يعنِ الرسول ﷺ أن لا نتحرك من هنا حتى في حالة النصر، إنما أوصانا بالبقاء هنا من باب الحيطة والحذر، أما الآن فقد فرّ العدو وانتصر المسلمون، فلا حرج في ترك المكان والاشتراك في الجهاد. فقال الأمير: إذا أمر الحاكم بأمرٍ فلا يحقّ للمحكوم أن يؤوّل أمره؛ لقد أمرنا رسول الله ﷺ بالبقاء هنا في كل حال، ونهانا عن ترك هذا المكان في حالة انتصار المسلمين أو هزيمتهم أو حياتهم أو هلاكهم. فيجب أن لا نتحرك من هنا. ولكنهم عصوْه وأصرّوا على خطئهم قائلين: إذا أردتَ فابقَ هنا، أما نحن فذاهبون للقتال. فذهب معظمهم، ولم يبق هناك إلا الأمير وبضعة آخرون. ولم يكنْ خالد بن الوليد وعمرو بن العاص قد دخلا في الإسلام بعد -كانا شديدي الذكاء والخبرة في القتال وقد صارا لاحقًا من القادة العظام في الإسلام وحققا إنجازات عظيمة- وإنما جاءا مع جيش الكافرين لمحاربة المسلمين، وبينما هما يهربان مع الهاربين، نظر خالد إلى الممر ووجده خاليا، فقال لعمرو: عندنا فرصة ذهبية لمباغتة المسلمين، فأخذ كلٌّ منهما أصحابه وجاء أحدهما من طرف والآخر من طرف آخر، وقتلوا المسلمين القلائل الموجودين في الممر، ثم فاجأوا المسلمين بالهجوم من

ورائهم. وكان المسلمون يظنون أنفسهم محميين من طرف هذا الممر، وكانوا قد تفرقوا هنا وهناك وقد تقوَّضت صفوفهم وهم يطاردون مَن بقي من العدو، ففوجئوا بهجوم خالد وعمرو المباغت، فقُتل بعضهم وجُرح الآخرون، أما الباقون فلم يستطيعوا الصمود أمام الهجوم الجارف، حتى وصل العدو إلى النبي ﷺ ولم يبق حوله إلا ١٢ شخصا. وكان خالد وعمرو قد استدعوا القادة الآخرين إلى الهجوم، فجعل الجيش الكافر المكوَّن من ٣٠٠٠ محارب يجرف المسلمين المتفرقين المتشتتين كالموج جرفًا، بين رامٍ بالحجارة ورامٍ بالسهام وضاربٍ بالسيف، ومع أن الصحابة قد قدّموا تضحيات منقطعة النظير، إلا أنهم لم يستطيعوا الصمود أمام ٣٠٠٠ محارب في ذروة نشاطهم وحماسهم. فأصيب النبي ﷺ في هذا الهجوم الجارف، وسقط اثنان من أسنانه، وأصاب خوذتَه حجر فدخلتْ حلقتها في خده، فسقط مغشيا عليه في حفرة، ووقعت عليه جثث الصحابة الذين كانوا يدافعون عنه، حتى اختفى جسده المبارك تحت جثثهم، وشاع بين المسلمين أن الرسول ﷺ قد استشهد. فنزل هذا الخبر كالصاعقة على المسلمين العاجزين عن الثبات أمام هذا الهجوم المكثف الجارف. ومن غرائب القدر أنه لما بلغ الكافرين إشاعةُ مقتل النبي ﷺ توقفوا عن متابعة الهجوم، إذ ارتأوا أن الأفضل أن يرجعوا إلى مكة بسرعة سالمين، ويبلّغوا أهلها بشارة مقتل محمد- والعياذ بالله. أما المسلمون فلما سمعوا خبر استشهاد الرسول ﷺ سارع إليه مَن استطاع منهم وأخرجوه من تحت الجثث، فوجدوه حيًّا يتنفس، فحاولوا إخراج الحلقة من خده ففشلوا، فنزعها صحابي بأسنانه بصعوبة حتى انكسرت اثنتان من أسنانه، ثم رشّوا على النبي ﷺ الماء فأفاق. وكان معظم الصحابة قد تفرّقوا ولم يكن حول النبي ﷺ إلا قليل جدا منهم، فقال ﷺ لهم: الأفضل أن نلوذ بسفح الجبل، فذهب بهم هنالك، أما باقي المسلمين فاجتمعوا حوله رويدا رويدا. وبينما كان الكافرون يرجعون نادى أبو سفيان بصوت عالٍ: لقد قتلنا محمدًا. فأراد الصحابة أن يردّوا عليه، ولكن النبي ﷺ منعهم من ذلك قائلا: إن معظم أصحابنا مشتتون، وقد قُتل كثير منهم وجرحوا، ونحن قليلون ومنهكون جدًا، أما الكافرون فإنهم ثلاثة آلاف مقاتل، ولا بأس بهم، فليس

من الحكمة الرد عليهم، فدَعُوهم وشأنهم، فلزم الصحابة الصمت. فأعلن أبو سفيان وقال: لقد قتلنا أبا بكر. فنهى النبي ﷺ عن الرد عليه. ثم أعلن أبو سفيان قائلا: لقد قتلنا عمر أيضا. وكان عمر حادّ الطبع، فأراد أن يردّ على أبي سفيان، ولكن الرسول ﷺ منعه، وقد قال عمر للرسول ﷺ فيما بعد: كنت أريد أن أقول له: إن عمر لا يزال حيًا ليشجّ رأسك. وعندما لم يتلق أبو سفيان أي جواب هتف عاليًا: اُعْلُ هُبَل.. أي أن إلهنا هبل قد أهلك محمدا وأصحابه. فظلَّ الصحابة صامتين لأن الرسول ﷺ كان قد منعهم من قبل، أما النبي ﷺ ذلك الإنسان المقدس -الذي كان قد نهاهم عن الرد على أبي سفيان من قبل عند ادعائه بقتله ﷺ وقتل أبي بكر وعمر، لأن الجيش المسلم مشتت، وهناك خطر تكرار الهجوم من العدو- ثارت غيرته على وحدانية الله تعالى لما سمع هتاف "اُعْلُ هُبَل"، فالأمر الآن لا يتعلق بمحمد أو أبي بكر أو عمر، بل قد أصبح مساسًا بعظَمَة الله، فقال لأصحابه بحماس شديد: لماذا لا تردّون على أبي سفيان؟ فقالوا: يا رسول الله، بماذا نردّ عليه؟ قال: قولوا: اللهُ أعلى وأجلّ، الله أعلى وأجلّ.. أي: ما قيمة إلهكم وصنمكم هُبَل أمامَ الله الأعزُّ والأجلّ؟ (السيرة الحلبية: ج٢ غزوة أحد، والسيرة النبوية لابن هشام: خبر عاصم بن ثابت، والبخاري: كتاب الجهاد والسير)

يا لها من غيرة على وحدانية الله تعالى. لقد نهى ﷺ صحابته عن الرد ثلاث مرات، مما يعني أنه كان مدركًا لخطورة الموقف كل الإدراك. كان يعلم أن الجيش المسلم مشتت وليس حوله ﷺ إلا قِلّة من أصحابه، وأكثرهم جرحى أو منهكون، وأن العدو لو علم باجتماع فئة من المسلمين فقد يهاجمونهم ثانية. ومع ذلك لم يُطِق النبي ﷺ السكوت حين أصبح الأمر يمسّ بعظمة الله، وقرّر الرد على العدو غير مبالٍ بالنتائج. فقال لصحابته: لماذا لا تردّون؟ لماذا لا تقولون: اللهُ أعلى وأجلُّ؟ الله أعلى وأجلُّ؟

١٧: كان النبي ﷺ شديد العناية بالضعفاء. كان عدد الكافرين في غزوة الأحزاب ١٥ ألفًا، أما عدد الجيش المسلم فلم يزد عن ١٢٠٠ -هناك اختلاف في عدد الطرفين في تلك الغزوة، فالمستشرقون الأوروبيون يقولون تهربًا من عار الهزيمة

التي حلت بالكفار أنه لم يكن عددهم إلا عشرة آلاف مقاتل فقط، أما المؤرخون المسلمون فقد ذكر بعضهم أن عدد الكفار كان ٢٤ ألفا. أما أنا فأرى بناءً على دراسة مختلف كتب التاريخ أن عدد الكفار كان نحو ١٥ ألفا، أما الجيش المسلم فأرى أن الرواية التي تذكر أن عددهم ١٢٠٠ هي أصح الروايات- كان في أحد أطراف المدينة بيوت بني قريظة وهي الباقية من بين القبائل اليهودية في المدينة، وكان بينها وبين المسلمين معاهدة، فظن النبي ﷺ أن هذه الجبهة محمية لأن هذه القبيلة مع المسلمين، أما الناحية الثانية فكان هناك جبل، فرأى المسلمون أن العدو لن يهاجمهم من هناك، وإذا هاجم فسوف يعلمون ويتصدون لهم، أما الناحية الثالثة فقد كان هناك بيوت المسلمين التي كانت بمنزلة سدّ منيع يحمي المدينة، وكان الطرف الرابع أرضًا فارغة، فحفر المسلمون هناك خندقا.

ولما رأى الكافرون فشلهم في التغلب على المسلمين تآمروا مع اليهود، وحرّضوهم على قتالهم، فانضموا إلى العدو ووعدوهم بالهجوم على المسلمين من ورائهم إذا حمي الوطيس. كان النبي ﷺ مطمئنا من طرف اليهود، ولكن الأنصار أعربوا له عن عدم ثقتهم باليهود، فقال النبي ﷺ: إن بيننا وبينهم عهدًا، فلا تسيئوا بهم الظن. ولكن عندما كثرت الأخبار عن غدر اليهود، بعث النبي ﷺ إليهم لاستطلاع الأحوال أنصاريَّيْن كانا لهما علاقات طيبة معهم، فأدركا من كلامهم أنهم مصممون على الغدر، فأبلغا النبي ﷺ أن جانب اليهود غير مأمون. لكن الرسول ﷺ ظل محافظًا على هذه المعاهدة وقال: لا يحق لنا أن ننقضها من طرفنا (السيرة النبوية لابن هشام: غزوة الخندق، والبداية والنهاية: ج٤ غزوة الخندق).

وكان النبي ﷺ قد جمع نساء المدينة في مكانين، فجمع مجموعة منهن في منازل ذات طابقين، وجمع في مكان آخر قريبٍ من طرف اليهود نساءَ أسرته ﷺ ونساء الصحابة اللاتي كان يُخاف أن يسعى العدو للهجوم عليه، إذ تُعتبر الإساءة إليهن إساءةً إلى الأمة كلها. فرأت صفيّةُ عمّةُ الرسول ﷺ ذات يوم يهوديا يُطلّ من فوق الجدار ناحية النساء، فقالت لحسان بن ثابت الذي كان يقوم بحراسة النساء: هناك يهودي يطلّ من فوق الجدار، فَقُمْ واقتلْه. وكان حسان ضعيف القلب فقال لها:

لعله أحد المارّة، وتوهّمْتِ أنه يُطلّ من فوق الجدار. فقالت: لقد رأيته بأم عيني يُطلّ. ثم أخذتْ خشبةً وضربت بها رأس اليهودي فسقط، وقد انكشفت عورته، فقالت صفيّة لحسان: اذهبْ واقتلْه الآن. فقال: لا أقدر على ذلك، فاقتليه أنت. فألقت على وجهها الحجاب وشجّت رأس اليهودي (البداية النهاية: ج٤ غزوة الخندق). ولما علم الرسول ﷺ بتصرفات اليهود العدائية وأنهم قد بدأوا يبعثون جواسيسهم على المسلمين لم يأمن طرفهم، فبعث لحماية النساء في المكانين ٥٠٠ مقاتل –٢٠٠ في مكان، و٣٠٠ في مكان آخر– فلم يبق معه لمحاربة الأحزاب إلا ٧٠٠ مسلم.

فما أروعَ التضحية التي قام بها لمساعدة الضَعَفَة، إذ فصل جزءًا كبيرا من الجيش الذي كان عليه حماية المدينة، وأرسله لحماية النساء، مما يدل أنه كان مستعدًّا لأي تضحية مهما كبرت لحماية النساء.

لقد تجلّى خلقه ﷺ العظيم في غزوة بدر أيضا. لم يكن عمّه العباس رضي الله عنه قد أعلن إسلامه بعد، إنما كان مسلمًا بالسرّ، فأخذه الكفار معهم للقتال، ومع أنه لم يشترك فيه عمليا إلا أنه أُسر مع غيره من الأسرى حين هُزم الكافرون، وكانوا عندها يربطون أيدي الأسرى بالحبال وبشدة حتى يتألموا، إذ لم تكنْ في ذلك الزمن أصفاد يقيدونهم بها، ولا أسلاك شائكة يضعونها حول المكان الذي يحبسونهم فيه. ونزل المسلمون في الطريق منزلاً، فوجدوا النبي ﷺ مصابا بالأرق لا ينام، فقال بعضهم: لعل أنين عمّه العباس من شدة آلامه هو الذي يؤرّقه، فقرّروا إرخاء الحبل المقيد به، فلما أرخوه توقّفَ عن الأنين. والحُبُّ يولّد الوهْم، فلما توقفت أنّاته ظنّ النبي ﷺ أنه قد مات أو أُغمي عليه من شدة الآلام، فقام فزعًا ودعا صحابته وقال: لماذا لا أسمع صوت العباس الآن؟ فقالوا يا رسول الله، لقد رأينا أنك تتألم من أنينه، فأرخينا له الحبل. كان المفروض أن يفرح بذلك، ولكنه ﷺ قال: لا أرضى بذلك، فإما أن ترخوا حبال الأسرى جميعًا أو أن لا تُرْخوا حبل العباس؛ فإما أن يكون الجميع في ألم أو في راحة. وهذا يعني أنه لم يُطِق آلام العباس من قبل، ثم لم يُطِق أن يُرخى حبله هو فقط بينما يظل الآخرون مشدودي الحبال. وهكذا قد ضرب ﷺ

بعمله أروع مثال للمساواة الإسلامية (أسد الغابة: ج٢ ص٥٤٤ العباس بن عبد المطلب).

١٩: عندما دخل النبي ﷺ مكة فاتحًا رأى العالَم مشهدًا مذهلا. كان أبو سفيان قد قُبض عليه خارج مكة، إلا أن الرسول ﷺ أذن له أن يذهب ويعلن باسمه بين أهلها أن مَن دخل الكعبة فهو آمن، ومَن دخل بيت أبي سفيان فهو آمن، ومَن جاء تحت راية بلال فهو آمن، ومَن أغلق عليه بابه فهو آمن. ثم لما توجه الجيش المسلم إلى مكة في الصباح قال أبو سفيان للعباس، وكان صديقًا له: أرجوك أن تُريني مشهد الجيش المسلم قبل أن أدخل مكة، فرضي وأجلسه معه في مكان يرى منه كتائب الجيش المسلم تمر من أمامه، وكلما مرت كتيبة عرَفها وقال للعباس مستفسرا: أهؤلاء بنو فلان؟ فكان العباس يقول نعم، حتى مرّت كتيبة كبيرة من أمامه فقال له مستغربا: من هؤلاء القوم؟ قال العباس: هؤلاء أنصار المدينة. فسمع قائد الكتيبة قول أبي سفيان، فقال له في حماس: تسأل مَن هؤلاء! نحن الأنصار، وسنصل إلى مكة بعد قليل لنشجّ رأسك. فسارع أبو سفيان إلى الرسول ﷺ وقال: يا رسول الله، لقد عفوتَ عني حتى قلت بأن مَن دخل بيتي أو دخل الكعبة أو جاء تحت راية بلال أو أغلق عليه بابه فهو آمنٌ، ولكن هذا القائد الأنصاري هددني قائلا: سنصل إلى مكة بعد قليل لكسر رؤوسكم. فقال النبي ﷺ: كلا، لن يُخزى أهل مكة؛ وكيف يذل مَن أعزّه الله؟ ثم دعا النبي ﷺ القائد الأنصاري وعزَله عقابًا على جرحه مشاعر أبي سفيان، غير أنه ﷺ راعى مشاعر القائد الأنصاري أيضا إذ لم يفعل ما فعله إلا مِن فرط حبه للإسلام، فعيّن ﷺ ابنَه قائدًا للكتيبة مكانه (السيرة الحلبية: ج٣ ص ٢٢ فتح مكة).

والحق أن تغيير القائد وقت الهجوم بسبب جرح مشاعر العدو ليس بأمر هين، بل قد يؤدي إلى تمرد الجيش، ولكن الرسول ﷺ لم يكترث للعواقب مؤكدًا خُلُقه العظيم في ذلك الموقف الحرج أيضًا بما لا مثيل له في تاريخ أي نبي.

٢٠: أما عفوه ﷺ العظيم عند فتح مكة عن أعدائه المتعطشين لدمائه بقوله: لا تثريب عليكم اليوم (السيرة الحلبية: ج٣ ص ١٤ فتح مكة)، فهو أروع مثال على

خُلقه العظيم. غير أن هناك أمرًا بالغ الأهمية أود ذكره هنا إذ لا يتنبه الناس إليه عادة. علمًا أنني بفضل الله تعالى عالِمُ نفسٍ، فمع أنني لم أتجاوز امتحان الابتدائية، إلا أن كبار علماء النفس يهابونني عند الحديث معي. ومع أنهم قد درسوا مئات الكتب في علم النفس إلا أنهم لا يستطيعون أن يباروني في هذا المجال بفضل الله. فعندي أن الرسول ﷺ قد ضرب مثالاً رائعا في علم النفس عند فتح مكة. إنه أمرٌ بسيط في الظاهر، لكنه عظيم من منظور علم النفس. فقد أعطى ﷺ الرايةَ سيدَنا بلال رضي الله عنه عند الفتح وأعلن: مَن جاء تحت رايته فهو آمن، وسيُعفى عنه. لا جرم أنه مثال عظيم على خُلقه العظيم من منظور علم النفس. فالجميع يعرف أن بلالاً كان عبدًا، وكان سيدُه يعذبه أشد التعذيب في مكة، فكان يجرّه على الحجارة، ويلقيه على الرمال المحرقة، ويقفز بنعاله على صدره، ملحًّا عليه أن يقرّ بأن الأصنام تملك القدرة، ولكنه كان يقول: "أسهد" ألا إله إلا الله. وكان طبيعيا أن يفكر بلال رضي الله عنه في الانتقام من هؤلاء الظالمين عند غلبة الإسلام، وأن رسول الله ﷺ والمسلمين الآخرين أيضا سينتقمون منهم له، ولكن عند فتح مكة قال أبو سفيان للنبي ﷺ: نحن قومك، فاعفُ عنا، فأعلن النبي ﷺ العفو العام قائلا: إن مَن دخل الكعبة فهو آمن، ومَن دخل بيت أبي سفيان فهو آمن، ومَن أغلق عليه بابه فهو آمن. فكاد قلب بلال يحترق حسرةً على ذلك، ولكن كيف يمكن للرسول ﷺ ألا يراعي مشاعر صحابيه الوفيّ مع أنه كان يراعي مشاعر أعدائه، فأضاف إلى الأحكام الثلاثة حكمًا آخر وأعلن أن مَن جاء تحت راية بلال فهو آمن أيضا. وهكذا نسب العفو إلى بلال، وكأنه ﷺ قال: إن هذا العفو العام ليس مني، وإنما هو من بلال، وهكذا أثلج صدر بلال ومنحه ذلك الشرف العظيم بقوله بأن الذين كانوا يظلمون بلالاً لن يُعفى عنهم إلا إذا لجأوا إلى ملاذه. وهكذا فإن الرسول ﷺ قد انتقم من أجل بلال، كما عفا عن أهل مكة أيضا. لقد راعى مشاعر بلال رضي الله عنه، كما راعى مشاعر أهل مكة وعفا عنهم. وبتعبير آخر؛ قد رفع النبي ﷺ مكانة بلال بهذا الانتقام، كما أنقذ أهل مكة من العقاب.

٢١: أما مثال الشجاعة والتمسك بالتوحيد الذي ضربه الرسول ﷺ في غزوة حنين فلم يسبق له نظير عند الأنبياء الآخرين. كان النبي ﷺ محاصرا بين أربعة آلاف من الأعداء، وكان مئات الرماة يصوّبون سهامهم إليه من يمينه وشماله، وكان جيش المسلمين مشتّتًا، ولكنه لم يبالِ بالعدو في هذا الموطن الحرج مطلقا، وأخذ يتقدم نحو العدو. فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله، لا تتقدَّم، بل علينا أن ننسحب قليلاً ونجمع أصحابنا، ثم نغير على العدو، فرد عليه الرسول ﷺ: اتركْ زمام حصاني، ثم حثّه على العدْو وهو يرتجز عاليًا: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب (البخاري: كتاب المغازي). فكأنه ﷺ أعلن: لا تظنّوا، بسبب تقدُّمي نحو العدوّ غير مبالٍ بسيوفه وسهامه، أنني قد اتصفت بصفات الله تعالى. كلا، بل أنا بشرٌ مثلكم، فأنا ابن عبد المطلب. بتعبير آخر، إنه ﷺ قد دلّل على شجاعته النادرة، كما دلّل على تمسكه بوحدانية الله.

٢٢: وهناك مثال آخر على شجاعة النبي ﷺ النادرة. يقول الصحابة بأنهم كانوا يتلقون الأخبار أن جيوش قيصر قادمة للهجوم على المسلمين في المدينة، وكانوا يقومون بحراستها كل ليلة. فسمعوا أصواتًا في إحدى الليالي، فخرج بعضهم من بيوتهم، واجتمع بعضهم في المسجد النبوي، وبعضهم في الميدان، وركض بعضهم في مختلف ضواحي المدينة لاستطلاع الخبر، فوجدوا الرسول ﷺ قادمًا على فرس، وقال لهم: لقد سمعت أصواتا فخرجت لتفقد الأوضاع، لا تُراعوا، فليس هناك أي خطر.

انظر كيف أن النبي ﷺ يخرج وحده من المدينة في جوف الليل، وبينما صحابته ما زالوا يفكّرون ماذا يفعلون، رجع ﷺ وأخبرهم ألا خطر عليهم، فلا داعي للخوف (البخاري: كتاب الأدب).

٢٣: وكان ﷺ شديد الاهتمام بأداء حقوق الناس، فقد ورد أنه أهدى الصلاة ذات مرة، ثم ما لبث أن دخل بيته مسرعًا كأنه يتخطى رقاب الناس كما قال الصحابة، ثم رجع بعد قليل وفي يده دينار، وقال: كنا نقسم الغنائم والصدقات، فسقط هذا الدينار ونسيته، فتذكرت خلال الصلاة أنني لم أوزعه، فلذلك سارعتُ

إلى البيت حتى لا أنساه مرة أخرى، فيضيع حقٌّ لعباد الله (البخاري، كتاب الزكاة).

كذلك ورد في التاريخ أنه جيء بتمر الزكاة إلى النبي ﷺ، فذهب الحسن رضي الله عنه وهو ابن ثلاثة أعوام، وأخذ تمرة ووضعها في فيه، فقال له النبي ﷺ: أَلْقِها. وكيف يمكن للطفل الصغير أن يلقي تمرة حلوة؟ فأخرجها الرسول ﷺ مِن فمه بإصبعه، وقال: هذا ليس من حقك، بل هو حق الآخرين (البخاري، كتاب الزكاة).

٢٤: ومما يدل على عظيم عاطفة شكره وامتنانه ﷺ أنه خاض حربًا ضد قبيلة طيّ، فأسرهم جميعا بعد أن هزمهم. فلما عُرضوا عليه تقدمت إليه ﷺ فتاة فقالت له: أتعرف من أنا؟ قال ﷺ: لا. قالت: أنا ابنة ذلك الكريم الذي ذاع صيته في الجزيرة العربية؛ فأنا ابنة حاتم الطائي. فقال النبي ﷺ: كان أبوك يحسن إلى الناس، فلا يليق بأن تبقى بنته في الأسر، فأطلق سراحها. فقالت: يا رسول الله، إني لا أرضى أن أعيش حرة وقبيلتي يعيشون أسرى. فقال ﷺ: ها إني أطلقهم أحرارًا. ثم استشفعت لأخيها الهارب، فقَبِلَ النبي ﷺ شفاعتها فيه، وعفا عنه (السيرة الحلبية: ج ٣ ص ٢٢٣-٢٢٤ سرية علي بن أبي طالب).

ما كانت لحاتم الطائي أيّة منّة على الإسلام، وإنما كان شهيرًا بكرمه وسخائه في منطقته، و لم يُسْدِ أي معروف لرسول الله ولا لجماعته، بل حاربتْه قبيلته فهُزموا وأُسروا، ولكن النبي ﷺ قد عفا عنهم جميعا لأنه كان يحسن إلى الفقراء، وأعلن ﷺ أنه لا يليق بنا أن نأسر قوم هذا الإنسان الذي كان يحسن إلى الفقراء في حياته.

٢٥: أما ضيافته ﷺ، فذات مرة نزل عنده يهودي ضيفا، وقال: جئتك لأسمع منك عن الإسلام. فذهب به النبي ﷺ إلى بيته وقدّم له حقّ الضيافة. فمكث عنده يومًا أو يومين، فظلّ ﷺ يبلّغه دعوة الإسلام. ثم تسّللَ اليهودي فجأة بعد أن تبرّزَ في فراشه، إذ لم تكن في تلك الأيام أسرَّة. وفي الصباح أخذ النبي ﷺ يغسل الفراش بيده، فبدأت المرأة التي تريق الماء على الفراش -حين كان ﷺ يغسله- تسبّ اليهودي وتدعو عليه، فقال لها النبي ﷺ: لا تفعلي هذا، فلعله قد أصيبَ بالإسهال.

٢٦: لقد أصبح النبي ﷺ ملِكًا، ومع ذلك فقد آثر الفقر. فذات مرة جاءته فاطمة -رضي الله عنها- وأرته يديها التي عليها آثار الثآليل لكثرة الطحن بالرحى، وقالت: يا رسول الله، أقوم بكل أعمال البيت وحدي من طحن وطبخ وطهي وتربية أطفال صغار، فأعطِني خادمًا يساعدني. ولم يكن وقتها نظام معين للسجناء من أسرى الحرب، بل كانوا يُوزَّعون على الناس، فكانت فاطمة -رضي الله عنها- تريد أن يعطيها النبي ﷺ أسيرًا منهم ليساعدها في أعمال البيت، ولكنه ﷺ أجابها: يا ابنتي، لماذا تتضايقين من مشاقّ الحياة؟ عليك بذكر الله تعالى بعد كل صلاة، فسيكشف عنك كل هذه الشدائد بفضله. وهكذا قد جبَر خاطرها مؤثِرًا الفقر على عيشة البذخ كالملوك (البخاري: كتاب النفقات).

٢٧: ومما يدل على تقواه ﷺ النادرة أنه لما اقتربت وفاته قال لصحابته يوما: مهما كان الإنسان عظيما فهو عرضة للخطأ، والله تعالى يعاقب على الإثم حتمًا، فأخاف أن أكون قد آذيت أحدا منكم فأُعَدَّ مجرما عند الله تعالى، فإذا كنت قد آذيت أحدًا منكم فلينتقمْ مني الآن. وكان الصحابة يحبّون النبي ﷺ حبًا يفوق التصور، فطار صوابهم بسماع قوله هذا، غير أن أحدهم تقدّمَ إليه بهدوء وقال: يا رسول الله، نعمْ، لقد آذيتني ذات مرة حين كنتَ تسوّي الصفوف، فأصبتَني بمرفقك من ورائي، وأريد أن آخذ منك ثأري. فقال ﷺ: تعال. واحمرّت عيون الصحابة غيظا ولولا الرسول ﷺ كادوا يمزّقونه إربا. ولكن الصحابيَّ لم يبالِ بهم، وقال: يا رسول الله، كنتُ مكشوف الظهر حين آذيتني، أما أنت فتلبس قميصًا، فقال ﷺ: فارفعْ قميصي، فرفع قميص النبي ﷺ وقبَّل ظهره في منتهى الحب والعشق. ثم قال باكيًا: يا رسول الله، من ذا الذي يفكّر في الانتقام منك؟ إنما وجدتُ فرصةً للتعبير عن حبي لك فانتهزتُها، فلعلّي لا ألقاك بعدها. فلما رأى الصحابة هذا المشهد زال غضبهم وغبطوه قائلين: ليتنا فكّرنا مثلما فكّر، لنعبر عن حبنا له ﷺ! (المعجم الكبير للطبراني: ج ٣ ص ٥٩)

فالتقوى هي التي جعلت النبي ﷺ يقول -رغم ما قدَّمه من خدمات عظيمة لصحابته- بأنني إذا كنتُ قد أصبت أحدا منكم بأي أذى، فلينتقمْ مني الآن.

٢٨: وقد بلغ من تواضعه ﷺ أنه كان ينهى الناس عن القيام عند مجيئه تعظيمًا له، وقال: هذه هي عادة الفرس، وأنا لستُ بمِلِك، إنما جعلني الله نبيًا (سنن أبي داود، كتاب الأدب).

ومما يدلّ على تواضعه ﷺ الجمّ أنه ذهب مرة لعيادة أنصاري، وعندما أراد العودة من عنده قدَّم له الأنصاري فرسًا يركبه إلى البيت، وأمر ابنه أن يرافقه ﷺ في العودة لكي لا يجفل منه الفرس ولكي يقوم بحراسته في الطريق، ويرجع بالحصان لعله لن يجد مَن يبعثه معه. وبعد قليل رجع ابنه، فقال له: لقد بعثتُك مع النبي ﷺ فلماذا رجعتَ! فقال ابنه: لقد رجعتُ مضطرا، لأن النبي ﷺ أمرني بالركوب وراءه، فاعتذرت إليه لأن فيه إساءة إليه ﷺ، فقال لي: إذن، فإني لا أحتمل أن تمشي وأنا راكب، فإما أن تركب معي أو ترجع، فرجعتُ.

ومما يدل على حبّه ﷺ الشديد لصحابته وتقديره لمشاعرهم وأحاسيسهم، أنه لقي مرة أحد صحابته الفقراء العمّال في السوق، وكان دميم الشكل وقد تصبّب عرقا بسبب مشقته في العمل وقد علتْ وجهه أمارات الحزن، فذهب إليه النبي ﷺ مِن ورائه وغطّى عينيه بيديه كما يفعل الصغار أثناء لعبتهم، فأدرك الصحابي أن هذا ليس إلا النبي ﷺ، فمن ذا الذي يمكن أن يلاطف فقيرًا دميم الشكل مُغبرًّا يتصبب عرقًا سوى النبي ﷺ؟ ثم إنه لمس جسد الرسول ﷺ بيده ليتأكد أنه هو، إذ كان جسده المبارك ناعما. فثارت عاطفة حبه للنبي ﷺ وأخذ يلامس جسده بجسده المبارك، فلما رأى النبي ﷺ سروره ورضاه قال: أيها الناس، إني أبيع عبدي هذا، فمن يشتريه؟ فقال الصحابي: يا رسول الله، إذنْ ستجدني كاسدًا! فقال ﷺ: ولكنك غالي الثمن عند الله ورسوله. (مسند أحمد، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه)

وهناك حادث مماثل لأبي هريرة رضي الله عنه. كان يسكن في المسجد لكي لا يفوته شيء من كلام النبي ﷺ، وكان لا يكسب شيئًا من الدنيا، فكان أخوه يرسل له الطعام إلى المسجد، ولكنه سئم من ذلك بعد فترة وتوقّفَ عن إطعامه، فكان أبو هريرة رضي الله عنه يضطرّ للفاقة أيامًا في بعض الأحيان، فتسوء حالته من شدة الجوع. واشتد به الجوع ذات يوم، فوقف في باب المسجد وفكّر أنه سيمرّ من هنا الصحابة

فيسألهم عن معنى الآية التي تحض على إطعام الفقير، فلعل بعضهم يطعمه شيئًا. فمرّ أبو بكر ﷺ، فقال له أبو هريرة: ما معنى قوله تعالى ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(الحشر:١٠)، قال: معناه أنهم يهتمون بالآخرين، حتى إنهم يجوعون ليطعموا غيرهم، ثم ذهب أبو بكر. ثم مرّ به عمر ﷺ فوجّه إليه السؤال نفسه، فأجابه بالجواب نفسه وذهب. فغضب أبو هريرة وقال: أيظنّان أنهما أكثرُ فهمًا للقرآن مني؟ كنت أظن أنهما سيدركان برؤية وجهي أني جائع فيطعمانني، لكنهما فسّرا لي الآية وذهبا! وبينما هو واقف عاتبًا عليهما، سمع من ورائه صوتًا لطيفا يقول له: أجائعٌ أنت يا أبا هريرة؟ وكان صاحب الصوت هو الرسول ﷺ. مما يعني أن الرسول ﷺ قد أدرك بسماع صوت أبي هريرة ما لم يدركه أبو بكر وعمر برؤية وجهه. فالتفت أبو هريرة إلى الوراء قال: نعمْ، يا رسول الله، إن بي جوعًا قارصًا. فقال ﷺ: إني جائع أيضًا، وقد بعث بعض أصحابنا إناء حليب، فتعال نشربه. ففرح أبو هريرة وتبِعه، فقال له النبي ﷺ: اذهبْ إلى المسجد، فلعل هناك أناسًا جياعا فأْتِ بهم. ويقول أبو هريرة: فتأسفت كثيرا بأن الحليب قليل، فكم من شخص سيكفي هذا القدر من الحليب؟ غير أني لم أجد بُدًّا من طاعته ﷺ، فذهبت ووجدت في المسجد ستة أشخاص، فناديتهم وأنا أتأسف وأفكر ماذا يحدث الآن، إذ كنت أظن من قبل أني سأشرب الحليب وحدي وأشبع، أما الآن فجاء هؤلاء كلهم فلن أجد من الحليب إلا جرعة أو جرعتين. ولما وصلْنا إلى النبي ﷺ ظننت أنه سيناولني الحليب أولاً لأن بي جوعا شديدا، ولكنه حمل الإناء وناولَه أحدهم، ففقدتُ الأمل نهائيا. فلما شرب، قال له النبي ﷺ: اشربْ حتى الشبع. فشرب المزيد وقال: لقد شبعت ولا أستطيع شرب المزيد. فناول النبي ﷺ القدح شخصًا آخر، ثم ثالثا ثم رابعا، وقلت في نفسي: لن يبقى لي الآن شيء منه. فلما جاء دوري وجدتُ الإناء مليئا كما هو -علمًا أن القدح كان كبيرا، ثم إن الله تعالى يضع البركة في يد الأنبياء- فقال الرسول ﷺ يا أبا هريرة، اشرب الآن. فشربت حتى شبعت. فقال ﷺ: أبو هريرة، اشربْ. فشربتُ ثانية، فقال ﷺ للمرة

الثالثة: اشربْ. فقلت: يا رسول الله، كاد الحليب يتفجر الآن من أناملي. فأخذ مني النبي ﷺ الإناء وشرب بعدنا نحن السبعة (البخاري، كتاب الرقاق).

هذا الحادث أيضا يكشف لنا مدى حرص النبي ﷺ على جبر خاطر صحابته وخدمتهم.

٣٠: ومما يدل على ما كان يكنّ في قلبه ﷺ من كرهٍ شديد تجاه الشرك، أن عائشة –رضي الله عنها– تروي أنه لما حانت منيّته ﷺ أخذ يتقلب في الفراش في قلق ويقول: "لعَن الله اليهودَ والنصارى، اتخَذوا قبور أنبيائهم مساجد" (البخاري: كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور). والواضح أنه ﷺ لم يُرِدْ بقوله هذا مجرد توجيه اللوم إلى اليهود والنصارى، إنما أراد تنبيه أمته أنه يكره الشرك جدًا حتى إنه يلعن فاعليه وقت مماته، لكي لا يتخذوا قبره بعده مسجدا. والواقع أن من نتائج قلق النبي ﷺ هذا أن الله تعالى قد نجّى المسلمين مِن اتخاذ قبره المبارك سببًا للشرك إلى الأبد، رغم تسرُّب آلاف المفاسد فيهم. لا شك أن المسلمين قد وقعوا في الشرك فيما يتعلق بالعقائد، إذ يؤمن بعضهم أن النبي ﷺ عالم الغيب وأنه كان يحيي الأموات الماديين، إلا أن الله تعالى قد حفِظ قبره ﷺ من الشرك للأبد.

لو أخذنا في الاعتبار بشكل مجمل ما ذكرتُه آنفًا من أحداث ووقائع، بل لو أخذنا كل حادث منفردا أيضا، فلا يبقى هناك شبهة في أن نبينا ﷺ هو أفضل الأنبياء كلهم، ولا مناص للإنسان من الإيمان بأنه أفضل النبيين حقًّا. بل أقول: حتى لو غضضنا الطرف عن كل هذه الأمور، فهناك أمر مؤكد بأنه لم يوجد بين الأنبياء أحدٌ له وجود تاريخي سوى النبي ﷺ. فقد كانت حياته ﷺ كلها صفحة مفتوحة أمام العالم، ولا توجد ثانية واحدة من حياته منذ ولادته إلى وفاته إلا وهي مكشوفة بين يدي الدنيا. متى حفظ التاريخ حياة الأنبياء الآخرين هكذا؟ خذوا كتاب موسى عليه السلام مثلا، فليس فيه أي ذكر لأحواله في بيته، وكيف كانت معاملته مع زوجته وأولاده وجيرانه، أما الرسول ﷺ فكل فعل من أفعاله وتصرف من تصرفاته حتى بُصاقه وقضاء حاجته، مسجل في التاريخ. فلم يخف على الدنيا

شيء من أفعاله داخل بيته أو خارجه. لقد روت زوجاته في الأحاديث كيف كان نومه ﷺ واستيقاظه وتهجُّده وأكله وشربه ولباسه وفراشه واغتساله وملاطفته نساءه حتى علاقاته الخاصة معهن، ومعاملته مع باقي أهل البيت والأطفال. فما من عمل من أعماله ولا لحظة من لحظات حياته إلا هو أمام أعين الناس. هل هناك نبيّ سواه نجد كلّ لحظة من حياته مكشوفة للعالم؟ كلا، ليس هناك نبي كهذا. إن ذكْر الأحداث الهامة من حياة نبي ليس دليلاً على أن حياته كلها كانت طاهرة، وإنما يُعرف ذلك إذا كانت جميع أحداث حياته معروفة للناس. ولكن ليس في العالم نبي سوى نبينا ﷺ كانت حياته كلها معروفة للعالم. فكأن النبي ﷺ كان يمرّ داخل ممرّ زجاجي، وكان العالم كله ينظر إليه. يمكن للمرء أن يعامل الناسَ رياءً ساعتين أو أربعًا، ولكن لا يمكنه ذلك خلال ٢٤ ساعة. ويمكنه أن يتظاهر بالصلاح خلال يوم واحد، ولكن من المحال أن يخفي رياءه هذا شهورا وسنوات. أما النبي ﷺ فأحداث حياته كلها معروفة للعالم كما هي، فكانت زوجاته في بيته بمنزلة الجواسيس عليه، فأخبرن كيف كان يغتسل ويأكل ويلبس ويلاطفهن، وكيف كان يعامل الأطفال والجيران والأقارب والنسوة اللواتي يحضرن إلى بيته. فما مِن عمل قام به داخل بيته إلا وذكرنه للآخرين، أما إذا خرج من بيته فكان هناك صحابته – مثل أبي هريرة– الذين أبوا إلا أن يتتبّعوه في كل مكان ويراقبوا كل عمل له ويذكروه للآخرين. فما من قول قاله أو عمل فعله أو سؤال وُجِّه إليه، أو تصرّفٍ ليّن أو قاسٍ قام به، أو معاملة قام بها، أو شيء سُئل إياه، أو عطاء أعطاه، أو صدقة جمعها، إلا وكان الصحابة يحفظونه ثم يحدّثون به الآخرين. فما بقي جانب من جوانب حياته ﷺ إلا وقد أشاعوه.

أما عيسى عليه السلام فيقال أنه عاش ٣٣ سنة فقط، إلا أن أحداث حياته الـ٣٣ سنة أيضا لم تُذكر في الإنجيل كاملة، بل تجد هناك فراغًا وانقطاعًا يمتد شهورا بل سنوات. كذلك هو حال موسى وإيليّا وسليمان وزكريا وغيرهم من الأنبياء – عليهم السلام– المذكورين في القرآن أو التوراة. فليس بينهم نبيٌّ حفِظ التاريخ أحداث حياته. أما الأنبياء الذين لم يرد ذكرهم في التوراة أو القرآن، ولكن يتضح

من أحوالهم أنهم كانوا رسل الله في عصورهم، مثل كرشنا ورام تشندر وبوذا وزرادشت -عليهم السلام- فلا نجد أحداث حياتهم كاملة. أما نبينا ﷺ فكل فعل من أفعاله قد ظهر وتبين وانكشف للعالم كما لو تعرِض على أحد معطفك مِن خارجه ثم تمزِّقه ليرى ما في طيّاته من قماش وغيره أيضا.

باختصار، كان الرسول ﷺ مزكًّى أكبر، ولذلك كان أكبر المزكِّين. فكل المطالب التي ذكرها إبراهيم عليه السلام في دعائه لهذا المبعوث -والتي أخبرنا الله في الآية ١٥٢ من سورة البقرة أنه قد حققها له استجابة لدعائه- قد أخبر الله الآن في سورة الكوثر أنه لم يستجب لدعائه في حقه ﷺ فحسب، بل حققه بشكل خارق منقطع النظير؛ فأعطاه كوثرا، فوهب له ﷺ كل شيء بأكثر مما سأله إبراهيم عليه السلام من أجله ﷺ. اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وبارك وسلم إنك حميد مجيد.

لقد ذكرت من قبل أن من معاني الكوثر الرجلَ الكثير العطاء والخير. وهذا المعنى مذكور في "المفردات في غريب القرآن"، وهو مِن أوثق القواميس التي تشرح مفردات القرآن، وقد ألَّفه العلاّمة أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني المعروف عادة بالإمام الراغب، ويذكره بعض المؤرخين باسم الأصفهاني فقط. وإني لا أقتبس من كتابه في تفسيري إلا نادرا، لأننا نستهدف في منشوراتنا دحْضَ التأثير المسموم للمستشرقين الذين لا يثقون بالقواميس ذات الطابع التفسيري، ولذلك أقتبس من القواميس ذات الطابع الأدبي خالصةً أو من مؤلفات المسيحيين أنفسهم حتى لا يبقى للمستشرقين أو المتأثرين بهم مهرب من القبول. ولكن المعنى الذي أذكره هنا خاص بالمسلمين، ولذلك أقتبسه من "المفردات" خاصة، مع أن هذا المعنى ليس خاصًا بالمفردات، بل قد ورد في أمهات القواميس مثل "تاج العروس" وغيره، كما يؤيده فئة الأدباء أيضا كل التأييد.

يقول الإمام الراغب في مفرداته: "﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قيل: هو نهرٌ في الجنة يتشعب منه الأنهار. وقيل: بل هو الخير العظيم الذي أعطاه النبي ﷺ. وقد يقال للرجل السخيّ كوثر."

وقد ورد في "أقرب الموارد"، إضافةً إلى معاني الكوثر التي أوردتُه في البداية: "الكوثرُ: السيدُ الكثيرُ الخير؛ الرجلُ الكثيرُ العطاء والخيرِ."

فهذا هو المعنى الثالث للكوثر الذي اعترف به المفسرون وأصحاب القواميس التي تشرح مفردات القرآن، بالإضافة إلى المعنى المذكور من قبل وهو نهر في الجنة.

إذن، فمن معاني قوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾: إنا أعطيناك رجلا كثير العطاء والخير. وعليه، فنستنتج من قوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ومِن قوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ -وسيأتي شرحه لاحقًا- أن هذا الرجل الذي يُعطاه النبيُّ ﷺ سيكون ابنًا روحانيا له، لأن الله تعالى لم يقل هنا إن رجلا سيظهر في أمته ﷺ، بل قال: إِنَّا أَعْطَيْنَاك هذا الرجل. وكان للنبي ﷺ اسمان من حيث رسالته: أحمد ومحمد؛ وإذا ما وضعنا اسم "أحمد" مكان ضمير الخطاب "ك" في هذه الآية فسيكون تقديرها كالتالي: "إنا أعطينا أحمدَ الكوثرَ، ولأن ما يُعطاه المرء يصبح غلامًا وعبدًا له، فكأنما يقول الله تعالى هنا: سيأتي إلى الدنيا غلامُ أحمدَ ﷺ الذي يكون كثيرَ العطاء والخير. فكون هذا الموعود من غلمان وخدام الرسول ﷺ ظاهرٌ من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾، لأن هذا العطاء يمكن أن يفسَّر بطريقين: إما إن يكون هذا ابنًا مِن صلبه، أو يكون ابنًا روحانيا له.. أي غلاما وخادمًا له؛ ولما كانت الآية ٤١ من سورة الأحزاب تنفي كون أحد ابنًا للرسول ﷺ مِن صُلْبه، فثبت أن الإشارة هنا إلى ابنه الروحاني. والآية التالية أيضا تبين هذا المعنى وتؤكده، حيث قال الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.. أي سنهب لك غلامَ أحمدَ، فعليك أن تهتمّ بالدعاء والتضحية. ولا شك أن الدعاء والتضحية يتمّان دائمًا عند ولادة طفل، إذ يأمرنا الإسلام عند ولادة طفل بحلْقِ شَعْره، وذبْح كبش عقيقةً له، وإخراج شيء من الصدقة. فثبت أن المرء يقوم بالدعاء والتضحية عند ولادة طفل له؛ وعليه فقوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ يكشف أن الحديث هنا عن ابنٍ روحانيّ.

أي أن محمدا ﷺ سيوهب رجلاً يكون من أبنائه الروحانيين، لا من خدامه الماديين فقط، إذ ليس ضروريا أن يكون الخادم تابعًا لطريقة سيده أيضا. فمثلاً

هناك كثير من المسلمين الذين عندهم خدمٌ من الهندوس والنصارى، بل وقد قال الرسول ﷺ نفسه: "إِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ" (البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر)، والتأييد هنا ليس بروحاني بل مادي من قبيل المساعدة بالمال أو القتال، إذ من المحال أن يختار اللهُ الفَجَرَةَ لتأييد دينه روحانيًا، ويترك المتدينين حقًا الذين يستحقون هذا الشرف. فلأن الله تعالى يبشّر هنا نبيّه ﷺ بأن هذا الرجل الآتي لن يكون خادمًا له فحسب، بل يكون ابنًا روحانيا له، فقال: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.. أي عليك أن تقوم بالدعاء وتنحر الأضاحي شكرًا لله تعالى على هذا الابن الروحاني، كما يدعو الناس ربهم ويذبحون الأضاحي لإقامة ولائم العقيقة عند ولادة ابن عندهم.

هذه الآية ردٌّ على الذين يقولون بأن الذي وُعد ببعثته لإصلاح هذه الأمة لا يكون فردًا منها، بل يأتي من خارجها؛ ذلك أن هذه الآية تؤكد أن الرجل المذكور هنا سيكون من هذه الأمة لا من خارجها. لقد انتشرت عند المسلمين فكرة خاطئة أن الرجل الذي وردت الأنباء عن بعثته في الأمة الإسلامية في الزمن الأخير هو المسيح الناصري عليه السلام، مع أنه لو كان هذا الموعود هو عيسى عليه السلام، الذي هو فرد من أمة موسى، فكان ينبغي أن يقول الله هنا: (إنا أعطينا موسى الكوثرَ)، بدلاً من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾. فقد تبين من هنا أن المراد من إعطاء الله محمدًا ﷺ الكوثرَ أنه سيهب له ﷺ ابنًا روحانيا، إذ إن المرء يقوم بالعقيقة والأضاحي والأدعية عند ولادة ابنه وليس ابن غيره.

يمكن أن يثار على هذا الاستدلال الاعتراض التالي: إذا كان قوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ إشارةً إلى بعثة موعود في الأمة، فلماذا لا نقول إن هذا الموعود هو غير المسيح الموعود؟ أعني لماذا لا نقول: إن هذه النبوءة تتحدث عن شخص آخر، لا عن الموعود الذي يُبعَث حاملاً اسم عيسى؟

والجواب أولاً: إن في أحاديث الرسول ﷺ نبوءات واضحة وصريحة عن بعثة المسيح والمهدي، حيث أخبر ﷺ أنه سيولد في الزمن الأخير مسيح ومهدي يقوم بإصلاح الأمة. وهذه النبوءات إما أنها تشير إلى بعثة شخص واحد أو شخصيتين

تظهران في زمن واحد، أما نحن فنرى أنها نبوءة عن شخص واحد يكون مسيحًا ومهديًا أيضا، أما عامة المسلمين فيرون أنهما شخصيتان تظهران في زمن واحد، أحدهما المسيح والآخر المهدي. وسواء أخذنا بمفهومهم أو بمفهومنا إلا أنه لا يسع أحدًا أن ينكر أنه لم ترِدْ في المصادر الإسلامية نبوءة عظيمة للرسول ﷺ عن بعثة شخص في الإسلام سوى المسيح والمهدي. فثبت من هنا أن الشخص الذي يذكره القرآن هنا هو إما أحد هذين الشخصيتين الموعودتين بحسب اعتقاد عامة المسلمين، أو هو نفس الشخص الموعود الذي يكون المهدي والمسيح في وقت واحد بحسب عقيدتنا. من المستحيل أن نصدّق أن تكون هذه النبوءة النبوية العظيمة عن شخصٍ نكرة، فإن الرسول ﷺ قد عظَّم هذه النبوءة جدًّا حتى قال إن جميع أنبياء الله تعالى منذ آدم قد أنذروا عن هذه الفتنة الكبرى التي تظهر في آخر الزمن (البخاري: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال). والواضح أنه كلما كبُرت الفتنة عَظُم شأن الذي يُبعث للقضاء عليها.

باختصار، قد ركّز النبي ﷺ جدًّا على المبعوث الذي يظهر في الزمن الأخير، والأحاديث مليئة بالأنباء عن ظهوره. لو قلنا إن المراد من الكوثر شخصًا نكرة وهو غير المهدي المسيح، لكان معنى ذلك أن الله تعالى صامت عن المبعوث الذي يخبر النبي ﷺ عن بعثته بهذا التأكيد، والنبيُّ صامت عن الشخص الذي يخبر الله عنه بكلمة الكوثر. وهذا لا يقبله العقل. إن النبي ﷺ إنما يركّز على ما ركّز الله عليه، وإن الله تعالى إنما يؤيد ذلك الخبر الذي أدلى به رسوله ﷺ. فالحق أن النبوءة الموجودة في لفظ الكوثر إنما تتعلق بالشخصية التي سُمّيت مسيحا ومهديا.

وثانيًا: إن ما يدعم هذا الاستنتاج هو أن دعاء إبراهيم عليه السلام – الوارد في الآية ١٣٠ من سورة البقرة، والذي أجاب الله عليه هنا بكلمة الكوثر– يقول: ربِّ ابعثْ في أبناء إسماعيل مَن يعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم. وقام إبراهيم بهذا الدعاء بحق إسماعيل مقابل الدعاء الذي قام به بحق ابنه الآخر إسحاق، وقد ورد ذكره في التوراة، وببركة هذا الدعاء قد بدأت في نسل إسحاق سلسلةُ الأنبياء التي تسمى السلسلة الموسوية التي كان موسى عليه السلام أول حلقة فيها، وعيسى آخرها.

والآن كان ضروريا من أجل التوازن والتشابه بين إسماعيل وإسحاق أن يُبعث في ذرية إسماعيل شخص يكون مثيلا لموسى وشخصٌ آخر يكون مثيلا لعيسى، بل كان يجب أن يكونا أفضل من مثيليهما، لكون تضحية إسماعيل أعظمَ ولكون الوعود المقطوعة بشأنه أعظمَ. ومن أجل ذلك قد بعث الله تعالى في ذرية إسماعيل محمدا ﷺ الذي هو مثيل لموسى، ولكنه أعظم منه شأنًا. ثم بشّر الله على لسانه ﷺ ببعثة مأمور آخر يحمل اسم المسيح -مثلما أُطلقَ اسم موسى على محمد ﷺ في القرآن الكريم-● حتى قال النبي ﷺ عن هذا الموعود: كيف تهلك أمة أنا في أوّلها وعيسى ابن مريم في آخرها (كنز العمال، ج١٤ رقم ٣٨٦٨٢)، مما يعني أن ما أُعطيتْه السلسلةُ الموسوية التي جرتْ في ذرية إسحاق، قد أُعطيه النبي ﷺ أيضًا، وهكذا تمت المشابهة التامة بين سلسلتي بني إسماعيل وبني إسحاق، كما ثبت فضل بني إسماعيل على بني إسحاق أيضا.

باختصار، نتيجةً لدعاء إبراهيم بحقّ ذرّيّة إسحاق، قد بدأت السلسلة الموسوية التي أسسها بموسى وانتهت بعيسى، كذلك فببركة دعاء إبراهيم بحق ذرية إسماعيل بدأت السلسلة المحمدية التي أسسها محمد ﷺ وأُنبئَ عن بعثة المسيح الثاني (أي المسيح الموعود) آخرها، لكي تكتمل المماثلة بين السلسلتين.

باختصار، فالمراد من خبرِ إعطاءِ غلامٍ أو ابن روحاني كثير الخير والعطاءِ هو أن هذه الحلقة الأخيرة من هذه السلسلة لا بد أن تكتمل -أي لا بد أن يُبعث المسيح الموعود- لتتمّ المشابهة بين السلسلة المحمدية والسلسلة الموسوية، بل لا بد أن يكون الموعود الأخير من السلسلة المحمدية أعظم شأنا وأعلى مكانةً وأدعى للمسرّة وأحسن مصيرا من الموعود الأخير من السلسلة الموسوية.

● يعني حضرته رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قد سُمي مثيلاً لموسى عليه السلام في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولا﴾(المزمل:١٦) (المترجم)

ثالثًا: ومما يدعم هذا الاستنتاجَ أن هذه الآية كما تنبأت عن رجل معطاء كثير الصدقة والسخاء، كذلك نجد في كلام الرسول ﷺ نبوءة عن بعثة شخص بهذه الصفة. فالحق أن الشخص المذكور في كلام النبي ﷺ وفي هذه الآية شخصية واحدة؛ لأنه إذا كانت النبوءتان عن سلسلة واحدة وكانت العلامات المذكورة فيهما متشابهة، وعن زمن واحد، فلا بد أن يكون المشار إليه شخصا واحدا. والنبوءة التي أدلى بها الرسول ﷺ تقول: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلاً فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ" (البخاري: كتاب البيوع، باب قتل الخنزير). فكلمات هذا الحديث تبين أن الرسول ﷺ يخبر هنا أن المسيح الذي يبعث في أمته في الزمن الأخير سيوزع الأموال على الناس. ولو وضعتَ قوله ﷺ: "يفيض المال" إزاء معنى الكوثر، لوجدتهما متشابهين.،فقوله: "يفيض المال"، والمعنى: "الرجلُ الكثيرُ العطاءِ والخيرِ" يشير في الواقع إلى شخصية واحدة. وحيث إن نبوءة الرسول ﷺ قد قامت بتحديد هذا الشخص الموعود، فلا مناص لنا من تفسير النبوءة الواردة في سورة الكوثر على ضوء التوضيح النبوي. إذن، فلسنا محقّين في اعتبار المسيح الموعود مصداقا للنبوءة الواردة في سورة الكوثر بناءً على التوضيح النبوي فحسب، بل ليس أمامنا خيار آخر؛ ذلك أن الرسول ﷺ مهبط وحي القرآن، وهو الأحق والأولى بتفسيره، وما دام قد وصف المسيحَ الذي يظهر في الأمة في آخر الزمان بأنه سيفيض المال، فلا بد من القول بأن الابن الروحاني –الكثير الخير والعطاء الذي أُخبر عنه في كلمة الكوثر– هو المسيح المحمدي نفسه.

لعل قائلا يقول هنا: هل يمكن أن يوزّع أحد الأموال على الناس ولا يقبلها أحد؟

والجواب: أن هذه النبوءة القرآنية قد ذكرتْ بحق هذا الموعود لفْظَ الكوثر فقط.. أي كثير العطاء والسخاء.. أما الرسول ﷺ فقد ذكر في نبوءته أمرا إضافيا بحق هذا الموعود؛ فأخبر أن هذا السخيّ المِعطاء سيفيض المال ولا يقبله أحد. وهذا يعني أنه ﷺ كان يعلم أن بعض الجهلة –وليس العقلاء– سيفسرون النبوءة القرآنية

تفسيرًا خاطئا، فزاد ﷺ هذه الكلمة ليفهم الناس نبوءة سورة الكوثر مع هذا الشرح، حتى لا يخطئوا في فهمها. ذلك أن الأموال التي يرفضها الناس إنما هي روحانية لا مادية، فعبارة "لا يقبله أحد" جاءت شرحًا للكوثر، وكأنه ﷺ أوضح بأن هذا الرجل الموعود المعطاء لن يوزّع الذهب والفضة التي لا يرفضها الناس عادةً، بل سيوزّع الكنوز الروحانية التي يرفضها معظم الناس. وتشبيه العلوم الروحانية بالكنوز والأموال سنّةٌ قديمة في صحف الله ولغةِ الأنبياء؛ فقد ورد في الإنجيل أن أعداء المسيح عليه السلام جاءوه وقالوا له: إن المِلك الروماني يطلب منا الخراج، فهل نعطيه أم لا؟ فَقَالَ لَهُمْ المسيح: أرُوني ما يطالبكم به؟ فأرَوه العُمْلة الرومانية التي عليها نقش صورة القيصر، فقال: هذه لقيصر، "أَعْطُوا إِذًا لِقَيْصَرَ مَا لِقَيْصَرَ، وَلله مَا لله" (مَتَّى ٢٢: ٢١). فقد شبَّه المسيح عليه السلام هنا الروحانيةَ ومعارفها بالأموال والكنوز، وطالب قومَه بضريبة روحانية، ولكن أعداءه وخصومه ظنوا بسبب استخدامه اللغة المجازية أنه يطالبهم بدفع الضريبة الحكومية له، واعتبروه باغيًا على الدولة، فذهبوا إليه للتأكيد على ذلك ولتجريمه، وسألوه ما إذا يدفعون الخراج للحكومة الرومانية أم له، فتنبّهَ المسيح عليه السلام إلى نواياهم الشريرة، فشرح لهم الخراجَ الذي طالبهم به، وقال بأن هذه العملة عليها صورة القيصر، وهذه حقُّه هو، فكيف أطالبكم به؟ إنما أطالبكم بالمال الذي عليه نقش الملكوت السماوي.. أي بالتضحيات الروحانية والمعارف الروحانية. فثبت من هنا أن المسيح عليه السلام كان يستعمل لفظ المال والعملة بالمعنى الروحاني.

ومما يدل على عظمة بلاغة الرسول ﷺ وفصاحته أنه أيضًا تنبأ عن مثيل للمسيح عليه السلام بلغة مجازية، كما كان يستعملها المسيح عليه السلام نفسه.

ونجد أن القرآن الكريم أيضا قد استعمل لفظ "الخزائن" لغير الثروة المادية، فقال: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا﴾(الإسراء:١٠١). علمًا أن الآيات التي قبْلها تتحدث عن أمور الدين ونزول كلام الله وبعثة الأنبياء، فالمراد الأول من الأموال والخزائن هنا هو كلام الله والمعارف الروحانية.

كذلك قال الله تعالى في معرض الحديث عن بعثة الرسول ﷺ: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾(الطور:٣٨).. أي أن توزيع النعم والكمالات والأسرار الروحانية هو مما يخصّ الله وحده، وقد احتفظ ﷻ بخزائنها في قبضته ولم يضعها في أيديهم، فكيف يعترضون إذا تبوّأ محمد ﷺ هذا المقام العظيم؟ هل يملكون خزائن الله الروحانية فيعطوها من يشاءون ويحرموها من يشاءون؟

لقد تبين مما سبق أن العلوم الروحانية تسمى أموالا وخزائن في الصحف السماوية وكلام الأنبياء. والحق أن المعارف الروحانية هي الخزائن الحقيقية، فقد قال المسيح عليه السلام "لَيْسَ بِالْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا الإِنْسَانُ، بَلْ بِكُلِّ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ اللهِ" (مَتَّى ٤: ٤). فالمراد من نبوءة الكوثر ومن توزيع المسيح الموعود للكنوز أنه سوف يوزّع كنوز العلوم والمعارف، ولكن الناس سيرفضونها كما فعل الناس مع الأنبياء السابقين.

وقد ذكرنا في البداية أن من معاني الكوثر: الخير الكثير، والخيرُ يعني الإسلام والدين، وهناك وحي للمسيح الموعود عليه السلام: "الخير كله في القرآن"(سفينة نوح، الخزائن الروحانية ج١٩ ص ٢٧). فالذي يوزّع معارف القرآن إنما يوزّع الخير، وهذه هي مهمة المسيح الموعود كما ورد في الحديث. وقد قام المسيح الموعود عليه السلام بتوزيع الثروة القرآنية بلا حدود، ولكن المسلمين أنفسهم للأسف قد رفضوا هذه الخزائن لسوء حظهم، ناهيك أن يرفضها غيرهم. وأنّى لهؤلاء الرافضين أن يعرفوا عظمة هذه الكنوز؟ نحن الذين قبلنا هذه الكنوز، ونعرف قيمتها وعظمتها إذ إنها لا تُقدَّر بثمن. لقد تلّقينا هذه الثروة حتى امتلأت بها بيوتنا. فشَخْصي أنا دليل على ذلك؛ فإنني لم أتجاوز الابتدائية من ناحية العلوم المادية، إذ كنت أتعلم في مدرستنا الخاصة، فكانوا يرفّعونني تلقائيًّا للصف التالي كل سنة، ثم فشلتُ في امتحان المتوسطة، ولكنهم رفَّعوني إلى الثانوية، وعندما دخلتُ امتحان الثانوية الحكومية انكشفت حقيقة دراستي، إذ لم أنجح إلا في العربية والأردية، ثم تركتُ الدراسة بعدها. مما يعني أن دراستي الظاهرة ليست بشيء، ومع ذلك لم يحدث قط أن أثار أحد أمامي اعتراضًا على القرآن الكريم ثم كان مصيره غير الخجل والندم. وها إنني

أقولها على الملأ اليوم أيضا: أنه لو أثار أيُّ عالِمٍ -مهما كان عظيمًا- أيَّ اعتراض على القرآن الكريم أمامي، فلا بد أن يُفحَم ويُهزم ويخجل. لقد زرت أوروبا ومصر والشام، وناقشتُ كبار العلماء من مختلف العلوم والمجالات في الهند، ولكن لم يحدث مرة واحدة أن لم يحالفني الفتح بفضل الله تعالى، بل كلما ناقشوني في العلم والدين اعترفوا بتفوقي وقوة أدلتي دائما.

ذات مرة جاء لزيارتي وفد مسيحي يضمّ السيرَ "ليوكس" الذي كان عميد كلية "فورمان" المسيحية، والذي كان قد عارضَه الطلبة الهنود فجاء مكانه السيد "دِتّه"، والسيدَ هيوم الذي كان سكرتير مؤسسة و.م.س.أ. المسيحية، والسيدَ "وولتر" الذي كان سكرتيره الثقافي، فوجّهوا إليَّ أسئلة، فرددت عليها ردًّا أفحمَهم. وبعدها قال السير ليوكس في خطاب ألقاه في سايلون (سريلانكا): اعلموا أن هذه الحرب الدائرة بين الإسلام والمسيحية لن تحسم في مدينة كبيرة، وإنما تحسم في قرية صغيرة اسمها قاديان.

عندما كان سني ١٥ أو ١٦ سنة، سمعتُ في الرؤيا صوتًا يشبه الصوت الذي يحدث عند النقر على كوب معدني، ثم أخذ الصوت ينتشر حتى تمثّلَ وصار كإطار، ثم تحوّلَ الإطار إلى صورة، فتحركتْ وخرج منها شخص فقال لي: إني ملَكٌ من ملائكة الله وقد جئتُ لأعلّمك تفسير سورة الفاتحة. فقلتُ: علِّمْني. فبدأ يعلّمني تفسيرها، وعندما وصل إلى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاك نَسْتَعِينُ﴾ قال: كل التفاسير التي تمت إلى الآن لم تتجاوز هذه الآية، فهل أعلّمك تفسير ما بعدها؟ قلت: نعم. فعلَّمني تفسير الآيات التي تلتها.

لقد مضت على هذه الرؤيا ٤٤ سنة، وإني بفضل الله تعالى أستطيع الردَّ على أهل كل دينٍ ومذهب من سورة الفاتحة وحدها بناءً على ما كشفه الله عليّ من علومها في هذه المدة. وإني أرى أن الفاتحة تردّ على كل ما في الدنيا من نظريات اقتصادية اشتراكية أو رأسمالية وغيرها.

وكنت قد حكيتُ هذه الرؤيا للناس في حينها وأخبرتُهم بأن الله تعالى قد علّمني تفسير سورة الفاتحة، ثم بعدها ذهبْنا -نحن طلاب مدرستنا الأحمدية- إلى مدينة

"أمرتسر" لنلعب مباراةً ضد كلية "الخالصة" السيخية، فقدَّم فريقنا أداءً رائعًا وهزمناهم. وكان هناك معارضة للأحمديين من قبل المسلمين الآخرين في تلك الأيام، ولكن الفِرَق الإسلامية المختلفة تتّحد في مثل هذه المناسبات، فلما هزمنا فريق السيخ فرح المسلمون الآخرون، وأقامت الجمعية الإسلامية بأمرتسر مأدبةً لنا. لم أكنْ عضوًا في الفريق، وإنما ذهبتُ لمشاهدة المباراة فقط كوني أحد الطلاب، وبعد تناول الطعام طُلب مني أن ألقي كلمة، ولم أكنْ قبلها قد ألقيتُ أي خطاب في اجتماع عام مثل هذا، وإنما كنت ألقي الخطب في المدرسة، أما هناك فكان كبار الناس وزعماء المدينة، فاعتذرتُ وقلت لست مستعدا لهذا. فأصرّوا عليَّ وقالوا: لا بد أن تلقي كلمة بأي موضوع شئت. فدعوتُ الله تعالى وقلتُ: يا رب، لقد علّمتني تفسير سورة الفاتحة بوساطة ملاك، مما يعني أنك ستكشف لي معارفها الجديدة، وقد ذكرتُ هذه الرؤيا للناس، وها قد حان اختباري، فاكشفْ لي بفضلك من مفاهيم الفاتحة ما لم يخطر ببال أحد من قبل. وبعد هذا الدعاء استهللتُ خطابي، فألقى الله في رُوعي فجأة مفهومًا لم يُذكر في أي تفسير من قبل، فقلتُ: لقد علّمنا الله في الفاتحة دعاءً بألا نكون من المغضوب عليهم ولا الضالين، والثابت من الحديث أن ﴿المَغضُوبِ عَلَيهِمْ﴾ هم اليهود و﴿الضَّالِّينَ﴾ هم النصارى (الترمذي، أبواب تفسير القرآن). فكأن الله تعالى قد علّمنا أن ندعوه: ربّ، لا تجعلنا نحذو حذو اليهود والنصارى. والجميع متفقون على أن سورة الفاتحة مكية، إذ هي من أوائل السور نزولاً، والغريب أنها نزلت في حينٍ لم يكن النبي ﷺ يتلقى أي معارضة من اليهود أو من النصارى، وإنما كان يعارضه مشركو مكة، فكان المفروض أن يعلّمه الله تعالى عندها أن يدعو: "ربنا لا تجعلنا من المشركين"، لكنه تعالى علّمه أن يدعو: "ربنا، لا تجعلنا يهودا ولا نصارى!" فما الحكمة في ذلك؟ وما السبب في أن الله تعالى لم يذكر في هذا الدعاء المشركين الذين كانوا يعارضون النبي ﷺ في مكة بشدة، وإنما ذكر اليهود والنصارى الذين كان وجودهم في مكة نادرًا جدًا؟ إنما السر في ذلك أن الله عالِمَ الغيب الذي أنزل القرآن كان يعلم أن عقيدة أهل مكة ستنتهي وتُباد بقَدَره، ولن يبقى لها مِن أثر في المستقبل، فلا داعي

لتعليم الدعاء بصدد عقيدة قد قضى الله تعالى أن لا يبقى لها مِن أثر؟ أما الأديان التي قدّر بقاءها، وكان من المقدر أن تقع بينها وبين الإسلام مواجهة روحانية ومادية، فعلَّمنا الله تعالى دعاء بصددها. فعدمُ ذِكْرِ الكفار المشركين في هذه السورة وذِكْرُ اليهود والنصارى فيها كان بمثابة نبوءة أن عقيدة مشركي مكة ستنتهي قريبًا، وأن ديانة اليهود والنصارى ستبقى. وهذا ما أكَّدته الأحداث فيما بعد. إذن، فمن خلال هذه السورة (الفاتحة) قد أعلن الله تعالى في أوائل نبوة الرسول ﷺ عن هلاك مشركي مكة كليةً، كما أخبر أن الإسلام سيلقى مواجهة مِن قبل اليهود والنصارى خاصة، فعلى المسلمين أن يستعيذوا بالله تعالى من شرور هؤلاء القوم. وهكذا قد قدّم الله تعالى في سورة الفاتحة دليلاً عظيما على صدق القرآن الكريم.

هذا هو المفهوم الذي قد ألقاه الله في قلبي قبيل الخطاب بثوان، والحق أن هذا الاستدلال العظيم الذي قمت به لم يخطر ببال مفسّر قبلي. وبعدها قد فتح الله عليَّ مئات معارف الفاتحة، وإنني لا أزال أعلن أنه لو أثيرَ أمامي اعتراض، و لم تحضرني أية آية قرآنية أخرى للرد عليه، فإن الله تعالى سوف يلهمني الردّ من سورة الفاتحة نفسها.

هذه هي الكنوز التي وزّعها علينا المسيح الموعود عليه السلام، وامتلأت بها بيوتنا، ولكن المؤسف أن المسلمين الآخرين رفضوا هذه الكنوز.

رابعًا: ومما يدعم هذا الاستنتاج الذي قمت به هو: أن كلمات آية الكوثر تبيّن أن الرجل الآتي سيكون ابنا روحانيا للرسول ﷺ، إذ هذا هو مفهوم ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ كما بينت من قبل، ومن ناحية أخرى نجد أن الرسول ﷺ أيضا يخبر عن بعثة ابنٍ روحاني له، حيث ورد في الحديث أن سلمان الفارسي رضي الله عنه كان في مجلس الرسول ﷺ، فوضع ﷺ يده على كتفه وقال: "سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ"(المستدرك: كتاب معرفة الصحابة، باب ذكر سلمان الفارسي)، وقال أيضا: "لَوْ كَانَ الإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ أَوْ رَجُلٌ مِنْ هَؤُلاءِ" (البخاري: كتاب التفسير، والمستدرك: كتاب تعبير الرؤيا)

وواضح أن سلمان ﷺ كان فارسيا، و لم يكن من أبناء الرسول ﷺ، فاعتباره من أهل البيت إشارةٌ إلى القرابة الروحانية. ثم إن قوله ﷺ بأن رجالاً من نسل سلمان أو عائلته سيعودون بالإيمان من السماء، إنما يعني أن رجلا (أو رجالا) من أبنائه ﷺ الروحانيين من أهل فارس سوف يقومون بهذه المهمة. ويتضح من الحديث أن زمن ارتفاع الإيمان إلى السماء هو زمن المسيح والمهدي (مسلم، كتاب الفتن)، فثبت من هنا أن هذا الرجل الفارسي الذي يعود بالإيمان من السماء يكون مهديَّ آخر الزمان. وآية الكوثر أيضا تخبر عن ظهور المهدي وتعتبره ابنًا روحانيا للرسول ﷺ كما بيّنت من قبل.

لعل أحدا يقول هنا: حتى لو قبلنا بتفسيركم، فإن هذه النبوءة القرآنية تتعلق بالمهدي، أما أنتم فتطبقون آية الكوثر على المسيح الموعود؟

وجوابنا على ذلك هو الحديث النبوي: "لا الْمَهْدِيُّ إِلا عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ" (ابن ماجة: كتاب الفتن).. أي أن المهدي وعيسى اسمان لشخصية واحدة، وليس شخصيتين منفصلتين. ولفظ الكوثر أيضا يدل أنها شخصية واحدة، حيث يقول الله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، فلو كانا شخصيتين لقال الله تعالى: إنا أعطيناك الكوثريْن. إذن، فالحديث النبوي الوارد في ابن ماجة وهذه الآية يؤكدان أنها شخصية واحدة. هذا أولاً.

وثانيًا: إن صفة السخاء الكثير لم ترِدْ عن المهدي، وإنما وردت عن المسيح (مسلم، كتاب الفتن)، فما دامت النبوءة القرآنية تطلق صفة العطاء الكثير والخير على الابن الروحاني للرسول ﷺ من جهة، وما دامت نبوءة الرسول ﷺ تصف المسيح بإفاضة المال، فثبت أنه شخص واحد لا اثنين.

وثالثًا: لقد ثبت من آية الكوثر أن هذا الآتي سيكون ابنًا للرسول ﷺ، والمسيحُ الناصري لا يمكن أن يكون ابنًا له، وإنما كان ابنَ سلسلة النبوة الموسوية. وهذا أيضا يؤكد أن الآتي لا ينزل من السماء، وما دام المسيح أيضا سيظهر من الأرض، فلا داعي لاعتبار الرجل الموعود شخصيتين.

رابعًا: لقد وصَف الحديثُ النبويُّ المهديَّ بأنه سيأتي من السماء، حيث ورد أنه سيعود بالإسلام من السماء رجل فارسي الأصل. وما دام الإسلام يعتبر المهدي قادمًا من السماء أيضا، فما الداعي لاعتبار الآتي شخصيتين؟ إن تعبير المجيء من السماء هو الذي سبّب المشكلة، وما دام صعود المهدي إلى السماء وعودته بالإيمان منها ثابت، فهو الذي يسمى مسيحًا أيضا.

قد تنتاب بعض القلوب شبهةٌ بأنه لماذا لا يقال هنا أن المراد من الكوثر هو أبو بكر ﷺ بحسب عقيدة أهل السنة، أو عليٌّ ﷺ وفق عقيدة الشيعة، ولماذا تُطبَّق هذه النبوءة على المسيح المهدي؟

والجواب: أولاً، لقد وُصف الآتي هنا بأنه كثير العطاء والسخاء، وهذا الوصف لا ينطبق على أبي بكر ولا على عليّ –رضي الله عنهما. لا شكّ أن الفتوحات قد بدأت في عهد أبي بكر، ولكن لم تأت الثروات عندها، وإنما أتت في عهد عمر ﷺ، الذي لا يعتبره أحد أفضلَ من أبي بكر، فلا يمكن اعتبارهما مصداقًا للكوثر. أما علي ﷺ فلا يمكن أن يسمى كثير العطاء والسخاء، لأن الثروات قلّت في عهده بدلاً من أن تزداد؛ فالثابت تاريخيا تمرّدُ أهل الشام ومصر في عهده، وهما قُطْرانِ ذوا الثروات والأموال، ومنهما تُجلب إلى المسلمين. ولما خرجت هذه المناطق الغنيّة من قبضته ﷺ سُدّت حاجات أهل الحجاز بصعوبة. إذن، فلا يمكن اعتبار عليّ ﷺ أيضا كثير العطاء والخير. لقد جاءت الأموال والثروات بكثرة في عهد عمر وعثمان –رضي الله عنهما– ولكن لا أحد من أهل السنة ولا الشيعة يعتبر أيًّا منهما أفضل شخصية بعد الرسول ﷺ.

ثم إن كلمات هذه النبوءة تبين أنها تشير إلى أفضل إنسان بعد الرسول ﷺ، وهذه الشخصية هي المسيح والمهدي، حسب العقيدة المتفق عليها. إن زمن المسيح والمهدي هو الذي قال النبي ﷺ عنه: لا أدري أأهلُ ذلك الزمن خير أم أهل

زمني◈، وكذلك قال النبي ﷺ عن هذا الموعود بأن اسم أبي يواطئ اسم أبيه، واسم أمي اسم أمه،✹ ويُدفَن معي في قبري (أبو داود: كتاب المهدي، ومشكاة المصابيح: كتاب الفتن).

يظن العامة أن معناه أنه يُدفَن في القبر المادي للرسول ﷺ. وهذا باطل بالبداهة، فأيُّ عديم الحياء هذا الذي يأخذ المعول وينبش قبر الرسول ﷺ ليدفن فيه هذا المهدي؟ ألا تنزل الصاعقة عليه؟ الحقّ أن كلام الرسول ﷺ استعارة ومجاز، وفيه إشارة إلى أنه لا فرق بينه وبين النبي ﷺ، وأن الله تعالى سوف يُسكنه معه. ولكن عامة المسلمين يظنون لجهلهم أن قبر الرسول ﷺ سيُنبش ليدفن فيه المسيح. والمعنى الذي بيّنتُه لدَفْنِ المسيح الموعود عليه السلام مع الرسول ﷺ ثابت من القرآن الكريم، إذ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ (الطور: ٢٢). هذا ما يعنيه الرسول ﷺ، إذ أخبر أن هذا الموعود سيكون ابنًا روحانيا له وسيسكنه الله تعالى قريبًا من مقامه الروحاني. وأيُّ شكّ في أن إقامة الأولاد مع الآباء من دواعي سرورهم وراحتهم، وإن لم يكونوا من درجتهم؟

وكذلك قد أطلق القرآن الكريم على الرجل الآتي اسم الطارق. والطارق هو مَن يأتي ويطرق بابك في ظلام الليل، وفيه إشارة إلى أن هذا الموعود يُبعث في عصر الظلمة والضلال. أما أبو بكر وعلي -رضي الله عنهما- فقد جاءا في عهد النور، فكيف يمكن أن يكونا مصداقًا لهذه النبوءة؟

إذن، فكلمات هذه النبوءة تشير إلى إنسان يكون أفضل الأُمّة بعد الرسول ﷺ، ومن أجل ذلك سماه الله تعالى كوثرًا.. أي أنه يُثبت فضْل أمة المصطفى ﷺ على أمم الأنبياء الآخرين، ومن خلاله سيثبت أن الله تعالى قد أعطى محمدا ﷺ الكوثرَ..

◈ لعل حضرته ﷺ يشير إلى الحديث النبوي: "مثل أمتي مثل المطر، لا يدرى أوّلُه خير أم آخره." (الترمذي: أبواب الأمثال، ومسند أحمد: مسند الكوفيين)

✹ لم نعثر على رواية تذكر أن اسم أمي اسم أمه. (المترجم)

أي سيثبت على يده فضلُ أمة النبي ﷺ على الأمم الأخرى. والحق أنه ما لم يوجد في أمة المصطفى ﷺ شخص هو أفضل من جميع الرسل -ما سوى النبي ﷺ- فلا يثبُت فضلُ أمّته ﷺ على غيرها من الأمم. لا شك أننا نؤمن أن نبينا محمدا ﷺ هو أفضل الرسل، ولكن ليس ضروريا أن يكون أولاد أفضل إنسان أيضا أفضل الناس؛ فمثلا كان سليمان عليه السلام نبيًا عظيما، ولكن كان ابنه فاسدا، فثبت أنه ليس ضروريا أن يشابه الأولاد آباءهم في الفضل دائما؛ ولذلك لا يثبت فضل أمة الرسول ﷺ على الأمم الأخرى إلا إذا وُجد في أمته مَن هو أفضل من سائر الأنبياء، مع كونه من أُمّته ﷺ وتابعا له.

إذن، فنظرًا إلى المعنى الأخير للكوثر -وهو الرجل الكثير الخير- فإن هذه الآية نبوءة عن المسيح والمهدي الذي هو شخصية واحدة، حيث بشر الله رسوله ﷺ بابن روحاني يكون ميلاده دليلاً على كون أمته ﷺ أفضل من أمم الأنبياء الآخرين، لأن ابنه يكون من أمته، ثم يكون أفضل من السابقين من الرسل، فأفضليته تكون دليلا على أفضلية الأمة الإسلامية، ومن أجل ذلك قال الرسول ﷺ: "لو كان موسى وعيسى حيّيْن لما وسعهما إلا اتباعي." (تفسير ابن كثير، تفسير سورة آل عمران) قد يقال هنا بأن هذا الحديث هو مجرد دعوى لا دليل عليها، فإن موسى وعيسى قد توفيا، فكيف يُعرف أنهما لو كانا حيين لتبعا النبي ﷺ؟ يمكن المقارنة بين الأحياء، ولكن كيف يمكن المقارنة بين الأموات الذين لا نستطيع أن نرجع بهم إلى الدنيا، فأي دليل على صدق هذه الدعوى؟

هذا سؤال طبيعي عن هذا الحديث، ولا يمكن الإجابة عليه إلا أن يولد في أمة الرسول ﷺ شخص يعتبر نفسه خادمًا له، ثم يعلن أفضليته على موسى وعيسى أيضا.. عندها يقال بلا شك: لو كان موسى وعيسى حيّينِ ما وسِعهما إلا اتباع النبي ﷺ؛ إذ قد وُلد في أمته ﷺ شخص هو أفضل من موسى وعيسى. ونحن نؤمن بأنه بحسب دعوى النبي ﷺ هذه، فقد بُعث المسيح الموعود وأعلن أنه أفضل من موسى وعيسى، مع كونه خادمًا للرسول ﷺ. يقول المسلمون الآخرون: إن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية قد أساء إلى المسيح عليه السلام حين قال ما معناه:

اتركوا ذكْر ابن مريم، فإن غلام أحمدَ أفضلُ منه. والحق أن قوله هذا ليس إساءةً للمسيح عليه السلام، بل هو شرْحٌ للحديث النبوي: "لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي"، حيث يصرح المسيح الموعود عليه السلام أني خادمُ أحمدَ ﷺ، ومع ذلك أنا أفضل من عيسى عليه السلام. ونتوصل من هذه الدعوى إلى نتيجة أن هذا المبعوث الذي هو أفضل من المسيح الناصري، ما دام خادمًا للرسول ﷺ فَلِمَ لا يكون عيسى من خدامه ﷺ لو كان حيًّا؟ كذلك إذا كان هذا الرجل أفضلُ من موسى عليه السلام، ومع ذلك يقول أنا خادم للمصطفى ﷺ، فهذا يعني أنه لو كان موسى حيا لكان من خدام الرسول ﷺ أيضا. فالحق أن كل دعوى للمسيح الموعود عليه السلام تتفق مع آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ تماما، وهو الرجل الذي بُشّر النبي ﷺ ببعثته في قول الله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.

قد يقال هنا بأن الله تعالى قد استخدم هنا صيغة الماضي: ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾، مما يعني أن هذا الابن الروحاني قد أُعطيَه الرسول ﷺ في الماضي، فكيف يقال بأن هذا الابن الروحاني هو مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية؟

والجواب: أن العرب يستعملون الماضي بمعنى الاستقبال للتأكيد والقطعية، فإذا قلت لأحد: سأعطيك هذا الشيء يقينا، فقال لك: متى؟ فتقول: قد أعطيتك.. أي كأني قد أعطيتك. كذلك قد استخدم الله تعالى هنا الماضي تأكيدا على هذا الخبر اليقين، بمعنى أنه تعالى سيعطيه ﷺ الكوثر حتما، وكأنه قد أعطاه.

ومن لم يرضَ بهذا الجواب فنقول له: إنك تفسّر الكوثر بأنه نهر في الجنة، فمتى أُعطيَ النبي ﷺ هذا النهر في عهده؟ كلا، لم يُعطَه في حياته. فلو قلتَ في الجواب بأن الله تعالى قد أعطاه ﷺ هذا النهر وإن لم يضعه في قبضته في حياته، بل قد ناله بعد الوفاة، فنحن أيضًا نقول: بأنَّ قَدَرَ الله تعالى قد أعطى النبي ﷺ هذا الابن الروحاني، وإن كان سيظهر في الزمن الأخير.

وقد قال قوم بأن المراد من الكوثر بركاتُ القرآن الكريم. فنقول لهم: هل كان النبي ﷺ قد أُعطيَ جميع بركات القرآن عند نزول هذه السورة؟ علمًا أنها نزلت في أوائل الإسلام، وكان القرآن لم يكن قد نزل كله عندها، فكيف يقال إنه ﷺ قد

أُعطيَ كل بركات القرآن الكريم عندها؟ وطبعًا لن يكون جوابهم على ذلك إلا أن يقولوا بأن هذا الوعد كان قطعيا، وكان ﷺ سيعطى بركات القرآن كلها حتمًا، فاستخدم الله صيغة الماضي، وكأنه قيل له ﷺ: قد أُعطيتَها. وبالمثل نقول إن قول الله تعالى ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ لا يعني أن الله تعالى كان قد وهب النبي ﷺ هذا الابن الروحاني عندها، بل المراد أن ميلاد هذا الابن الروحاني في الزمن الأخير كان قدرًا مقدورا وأمرًا قطعيًا، فاستعمل الله له فعْل الماضي.. كأن الله تعالى قال: إن مشيئتنا الأزلية قد أعطتْك هذا الابن الروحاني سلفًا، غير أنه سيظهر في الزمن الأخير.

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

فَصَلِّ: الصلاة معناها العبادة المعروفة؛ الدعاء. (الأقرب)

والفاء في العربية تفيد العطف أو العاقبة، فإذا كانت عاطفةً فتفيد الترتيب عادةً (مغني اللبيب، حرف الفاء)، أي أن هذا الفعل وقَع بعد الفعل الأول. أما الفاء هنا في قوله تعالى ﴿فَصَلِّ﴾ فهي للعاقبة، والمراد: أننا أعطيناك الكوثر، ولذلك صَلِّ أو ادْعُ وقَدِّم الأُضْحيّة.

وَانْحَرْ: النحْر له عدة مفاهيم منها:

المفهوم الأول: نحَر الصلاةَ: صلاها في أوّل وقتها (الأقرب). علمًا أن لكل صلاة موعدين؛ الأول والأخير، فموعد الظهر مثلاً يبدأ بدقائق بعد الزوال ويستمرّ إلى أن يصير ظل الجسم ضعفَيْ طوله. أما العصر فيبدأ موعدها بعد أن يصير الظل ضعفين ويستمرّ إلى اصفرار الشمس قبيل مغيبها. أما المغرب فيبدأ ميقاتها بعد غروب الشمس حتى اختفاء الشفق. وأما العشاء فيبدأ وقتها باختفاء الشفق حتى منتصف الليل عند البعض، وإلى صلاة الفجر عند الآخرين. ويبدأ وقت الفجر عند تبيُّن

الخيط الأبيض من الأسود حتى شروق الشمس. إذن، فلكل صلاة موعدٌ أوّل وموعد أخير.

لقد اختلف الفقهاء فيما إذا كان موعد الصلاة هو كل الوقت الموجود بين بداية موعدها ونهايته، أم أن وقتها الحقيقي هو وقتها الأول، أما بعدها فتُعتبر الصلاة قضاءً. فيرى بعضهم أن وقتها الحقيقي هو الأول، أما ما يصليه المرء بعده فهي صلاة قضاء، أما إذا تأخّر أكثر حتى بدأ موعد الصلاة التالية فلا تُعتبر صلاته الأولى قضاءً أيضا. بينما يرى آخرون أن أداء الصلاة في وقتها الأول أفضل، ولكن ليس هو وقتها الأصلي فقط، فلو صلاها بعدها فإن صلاته صحيحة ولا تعتبر قضاء.

والفقهاء الذين يرون أن وقت الصلاة إنما هو وقتها الأول وما يصليه المرء بعدها فهو قضاء، يقولون: لو انقضت ربع ساعة من الموعد الأول للصلاة –وهو وقت يمكن أداء الصلاة فيه– و لم يصلِّ فيها المرء ومات، فيعتبر تاركًا لها وآثمًا؛ إذ كانت عنده فرصة لأدائها و لم يؤدها. أما الذين يرون أنه إذا أداها في آخر وقتها صحّتْ، فيقولون إن موعد أداء الصلاة طويل، ولو توفي المرء قبل انتهاء هذا الموعد فلا يُعتبر آثما.

والثابت من سنة الرسول ﷺ أنه اعتبر كل هذه الفترة ما بين الموعدين وقتًا للصلاة، إذ ورد في الحديث أن النبي ﷺ قد أدى الصلاة في آخر موعدها عمدًا في بعض الأحيان (الترمذي، أبواب الصلاة)، و لم يحدث قط أن قام صحابي وبدأ الصلاة في هذه الفترة بحجة أن موعدها سينتهي، بل كان ينتظر بكل حال. فلو كان صحيحًا أن المرء إذا لم يصلّ في الوقت الأول.. أي خلال ربْع الساعة الأولى، فمات فهو آثم، لكان معنى ذلك أنه لو مات أحدٌ من الصحابة في مجلس النبي ﷺ بسكتة قلبية، و لم يستطع أن يؤدي الصلاة في وقتها الأول لاعتبر آثما بسبب تأخير الرسول ﷺ للصلاة، وهذا أمرٌ لا يقبله العقل. فالحق أن كل هذه الفترة هي وقت الصلاة، فإذا أدّاها في آخر موعدها فلا إثم عليه، إلا أن أداءها في وقتها الأول أكثَرُ ثوابا.

وقوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ يعني: فَصَلِّ لِرَبِّكَ وأدِّها في أول وقتها.

والمفهوم الثاني: نَحَرَ: وضَع يمينه على شماله.. يعني في الصلاة، حيث يضع الوهابيون أيديهم فوق الصدر، والأحناف تحت الصدر، وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿وَانْحَرْ﴾: صَلِّ واضعًا يدك اليمنى على اليسرى.

المفهوم الثالث: والنحرُ ما بين أسفل الحلق وأعلى الصدر، وعليه فقوله تعالى ﴿وَانْحَرْ﴾ يعني: المِسْ أعلى الصدر أو ضَعْ يديك هناك في الصلاة. حيث يرى أهل الحديث أن طريقة وضع الأيدي في الصلاة عندهم هي الصحيحة، ولكن مثل هذه الاستدلالات واهية جدا. لا شك أننا نحن المسلمين الأحمديين أيضا نصلي واضعين أيدينا على الصدر، مثل أهل الحديث، ذلك لأن هذا ثابت من أكثر الأحاديث وسنة الرسول ﷺ (أبو داود، كتاب الصلاة)، وليس لأن هذا ما يُستنتج من قوله تعالى ﴿وَانْحَرْ﴾. فمثل هذه الاستدلالات لا تدعم الحق، بل تجعله مثيرا للضحك.

المفهوم الرابع: نَحَرَ: انتصبَ بنحره إزاء القبلة.

المفهوم الخامس: نَحَرَ: انتصبَ ونَهَد صدره.. أي وقف منتصب القامة لا ينظر هنا وهناك.

ونظرًا إلى هذه المعاني المختلفة للنحر فقوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ يعني: فَصَلِّ لِرَبِّكَ -الذي يمنّ عليك دائما- في أول وقت الصلاة رابطًا يديك متوجهًا نحو القبلة دون النظر هنا وهناك؛ أو المعنى: ادعُ ربك بكامل الثقة واليقين.

وإضافة إلى المعاني المذكورة آنفًا، هناك معنى آخر للنحر، وهو تقديم أضحية الجَمل؛ ذلك أنهم إذا أرادوا نحر الجمل طعنوا منحره (أسفلَ رقبته) بالرمح، فيُقطع وريده ويخرج الدم فجأة بغزارة، فيسقط مغشيا عليه، فيذبحونه. وحيث إن النحر يطلق على تقديم أضحية الجَمل وما شابهه من حيوان، فالزرافة مثلا تُنحر قياسًا على الإبل، ولكن لا يُستخدم لفظ النحر للبقر والكبش وغيرها من الحيوانات الصغيرة، لذا فقوله تعالى ﴿وَانْحَرْ﴾ يعني: قَدِّمْ أضحية كبيرة.

التفسير: قوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ إيماءٌ إلى أن الطاعةَ أو الدعاءَ -أي طلب الحاجة- كلاهما منوط بالذي عنده مقدرة؛ فمثلاً هناك فقير يذهب للتسول في منطقة غريبة، فيرى هنالك بيتًا فخمًا يحرس بابه بعض الخدم، فيظن أن صاحبه ميسور الحال، فيتوجه إليه أملاً أن يجد منه شيئا، لكنه يُخيّب آماله، بينما تراه امرأة عجوز فقيرة لا تملك إلا كوخًا فتترحم عليه وتناديه: تعالَ هنا، وتعطيه كسرات خبز أو حفنة دقيق. إنه لم يتوجه إليها أولاً لعدم علمه بالواقع، إنما توجه إلى الثري وكأنه يطلق السهم في الظلام، إذ يظن أنه سينال شيئا منه، ولكنه لا يعلم حتمًا أنه سيعطيه، أما لو كان يعلم أنه يجد شيئًا من الثري في معظم الأحيان، فسوف ينادي على بابه بكامل الثقة واليقين لعلمه أنه لن يرجع خاوي الوفاض. فلكي يخلق الله الثقة في العبد قال هنا: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾.. أي لإلهك الذي يقوم بتربيتك وترقيتك، وهكذا وجَّه نظر الإنسان إلى أن الله الذي تدعوه وتسأله لا يملك القدرة على إعطائك ما تسأل فحسب، بل لم يزل يربيك ويحسن إليك ويعطي عباده دائما.

ولما كان بعض الكرماء لا يعطون الجميع، إذ يكون في جوارهم كثير من الفقراء، فلا يهتمّون بسدّ حاجاتهم جميعا، فالسؤال هنا: هل الله تعالى مثل هؤلاء، فيسدّ حاجات البعض ويهمل الآخرين؟ فدرءًا لهذه الشبهة قال الله تعالى ﴿لِرَبِّكَ﴾.. أي أيها السائل، إنه تعالى ليس فقط جوادًا كريما لا يرد السائل صفر اليدين، بل إن له صلة خاصة بك، فكنْ على ثقة أنه لن يرد دعاءك، لأنه صاحب مقدرة وسخاء، ثم إنه يعتني بك خاصة.

ثم قال الله تعالى ﴿وَانْحَرْ﴾.. أي: شكرًا على ما وهبك الله الكوثرَ، عليك أن تصلي وتدعو الله تعالى وتقدِّم تضحيات كبيرة.

لقد بينت من قبل أن الكوثر تفسَّر عادةً بثلاثة مفاهيم، أحدها نهر في الجنة، ولكن لا نجد أي علاقة بين نهر في الجنة وبين قوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾، إذ يصبح المعنى في هذه الحالة: لأنك ستجد نهرًا في الجنة فعليك أن تصلّي وتقدّم تضحيات عظيمة، وهذا المعنى مثير للضحك؛ فإن الله تعالى قد وعد رسوله بما هو

أعظم من نهر في الجنة، ومع ذلك لم يقل له ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ شكرًا عليه. فمثلا قد وعده الله تعالى بلقائه، ولكنه لم يأمره عندها بالصلاة وتقديم التضحيات، مع أن هناك بونًا شاسعًا بين النهر ولقاء الله تعالى! إذا كان الله تعالى قد أمر رسوله ﷺ هنا بالصلاة والتضحيات شكرًا على نعمة عادية (أي نهر في الجنة)، فكان ينبغي أن يأمره تعالى بصلوات وتضحيات أكثر على نعمة عظمى هي لقاء الله تعالى، لكنه لم يفعل. فثبت أنه لا انسجام بين مفهوم النهر في الجنة وبين قوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

أما إذا فسرنا الكوثر بالخير الكثير، أصبح قوله تعالى﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ منسجمًا مع باقي السورة كل الانسجام. ذلك أن الله تعالى عندما يُنعم على عبد بكثرة يحسده كثيرون؛ فمثلا يوجد في الدنيا آلاف العلماء الذين يتباهون بكونهم مثقفين وعمداء كليات وأساتذة جامعات وأئمة مساجد وشيوخ جوامع، فإذا جاء شخص خامل الذكر لا يساوي أمامهم شيئا في الظاهر، وقال لهم: عليكم أن تبايعوني، فلا بد أن يتميزوا غيظًا قائلين: كيف نبايع على يدك؟ إنك لا تساوي شيئًا إزاءنا. فبمجرد أن يعلن نبوته يكثر حسّاده في الدنيا، وإلى الأمر نفسه يشير الله هنا ويقول لرسوله ﷺ: سيحسدك الناس ويعارضونك على ما أنعمنا أو سننعم عليك من منن، فعليك أن تستعدَّ لمواجهتهم، فأكثِرْ من الصلاة والدعاء والتضحيات ليكشف الله عنك هذه البلايا والشدائد.

وبالنظر إلى المعنى الأول للكوثر -وهو الكثير من كل شيء- نجد أنه كلما أنزل الله المزيد من القرآن، ازداد العدو حقدا وبغضًا، وازداد المسلمون أيضا صلاة ودعاء وتضحيات، فنذروا أموالهم وأنفسهم في سبيل نصر الإسلام بما لم يسبق له نظير في العالم. سئل بعض الصحابة ذات مرة: مَن الذي كان أشجعكم في عهد الرسول ﷺ -فكما يثار هذا السؤال في هذه الأيام بين الشيعة والسنة كثيرا، كذلك كان الناس عندها أيضًا يكيلون الثناء والمدح لمن ينحازون له- فقال الصحابة: كان أشجعنا، أقرَبنا من الرسول ﷺ موقعًا في القتال. والحق أن هذا الأمر لا يستوعبه إلا الخبير بالقتال؛ ذلك أن العدو يسعى دائمًا للقضاء على روح الأمة وقائدها حتى

تنتهي القضية بانتهائه، ولذلك يكثّف هجومه حيث قائد العدو، فلا يتثبت حوله إلا أشجع القوم (تفسير الخازن، تفسير سورة التوبة). ثم أخبر الصحابةُ أن أبا بكر كان أكثرنا وقوفًا بجانب النبي ﷺ، لذلك فهو أشجعنا.

يقول العدو اللدود للإسلام "وليام موير" بأن عدد المسلمين في غزوة الأحزاب كان قليلا جدا مقابل العدو، فلا يدري المرء كيف كانوا يحاربونهم. كان عدوهم – لكثرة عدده– يتناوب في الحرب، فكان يشنّ عليهم هجمات متكررة دون توقف، حتى ينهكهم، إذ كان قوام الجيش المسلم ١٢٠٠ مقاتل فقط، وقد عُيِّن ٥٠٠ منهم على حراسة النساء، فلم يبق منهم إلا ٧٠٠ فقط، أما العدو فبلغ ١٥ ألف مقاتل. ولو وزّع العدو جنوده على خمسة كتائب لاشتملت كل كتيبة ٣٠٠٠ مقاتل، ولو قاتلت كل كتيبة خمس ساعات، فكان بوسعهم أن يقاتلوا المسلمين بالتناوب ٢٤ ساعة. أما المسلمون القلائل فكانوا لا يستطيعون أن يوزعوا جنودهم إلى قسمين يتناوبان في الحرب. ثم إنهم كانوا موزعين على جبهة تمتد ميلاً، فعندما كانت الكتائب الخمس للعدو تغير عليهم بالتناوب، كانوا يضطرون للتصدي لهم ٢٤ ساعة، في حين لم يبلغ عددهم ربع كتيبة العدو، فلم يجدوا فسحة للنوم، حتى إن الرسول ﷺ لم يستطع أن ينام عدة أيام، إذ ورد في التاريخ أن النبي ﷺ قال لبعض أزواجه مرةً في إحدى الليالي: لم أذق طعم النوم منذ أيام، وأرى أن عليَّ أن أنام قليلا لكي لا تتدهور صحتي، ولكن العدو لا يبرح يشن الغارات على طول الجبهة باستمرار، فلا بد من أخذ الحيطة أيضا، فليت هناك مَن يحرس خيمتي لبعض الوقت حتى آخذ قسطًا من النوم. ففيما هو في ذلك إذ سمع أصوات السلاح خارج خيمته، فقال ﷺ: مَن؟ فقال أنصاري: يا رسول الله، أنا فلان، وقد رأيتك لم تنم منذ أيام، فجئت لأحرسك لكي تنام بعض الوقت لأن القتال قد خفَّ قليلا (البخاري، كتاب الجهاد والسير).

يا لها من تضحية! وما أروعه من إيثار! لم يكن النبي ﷺ قد ذاق النوم لأيام متتالية، فلما بلغ منه الإرهاق الذروةَ، جاء صحابي لم ينم مثله ليحرس خيمته ﷺ!

هذا ما يشير الله إليه في قوله ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.. أي عليك أن تُواصِل في الدعاء وتقديم التضحيات الجسيمة، لأن مواجهتك مع العدو ستكون شديدة، فلو ثابرت على الدعاء والتضحيات لتغلّبَ خيرك الكثير على العدو. وهذا ما حدث بالفعل، فكان من نتيجة أدعية النبي ﷺ وتضحياته أن الله تعالى قد أعطاه الكوثر وقضى على معارضة العدو. كذلك لما أخبر الله رسوله ﷺ بأخبار أمته في الزمن الأخير دعا لها بأدعية كثيرة، كما رفَع من همة المسيح الموعود ومعنوياته، ونصح المسلمين أن من واجبهم أنه إذا ظهر الإمام المهدي فليذهبوا إليه ولو حبوًا على الثلج ويبايعوه ويبلّغوه سلامه (ابن ماجه: كتاب الفتن، ومسند أحمد: مسند أبي هريرة)

والسلام يعني الدعاء بالسلامة، فتبليغهم سلام النبي ﷺ للمسيح الموعود يعني أن يقولوا له بأن محمدا رسول الله قد دعا لك ولنجاحك كثيرا، فلا تخشَ معارضة الأعداء، بل واصِل مهمّتك واثقًا مطمئنًا.

أما نظرًا إلى المعنى الآخر للكوثر –وهو الرجل الكثير العطاء والخير– فالمراد من هذه الآية: يا محمد، يا رسولي، إننا سنَهَبُ لك ابنًا روحانيا عظيما، وكما أن الناس يشكرون الله تعالى ويقدّمون الأضاحي عند ولادة ابن عندهم، فعليك أن تشكر الله تعالى شكرًا خاصا وتقدِّم تضحيات عظيمة على ولادة ابنك الروحاني العظيم هذا، لكي يرفع الله اسمك إلى الأبد.

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

الأبتر: لقد ورد في بعض الروايات أن الكافرين كانوا يعيّرون النبي ﷺ بكونه أبترَ –والعياذ بالله– ويدّعون أن دعوته ستنتهي سريعا. فأنزل الله تعالى قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾. ولكن النبي ﷺ قد رُزق بنات لا أبناء، فلذلك قال المفسرون بأن الأبتر مَن ليس له أولاد ذكور.

ولكن الأبتر يعني عادة: مَن لا أولاد له مطلقا، أو مَن ليس له ولدٌ ذَكَرٌ. فقد ورد في "تاج العروس"، وهو أحد أكبر قاموسين عربيين: "الأبترُ: المنبتِرُ الذي لا ولد له. قيل: لم يكنْ يومئذ وُلِدَ له. قال: وفيه نظرٌ، لأنه وُلد له قبل البعث والوحي، إلا أن يكون أراد: لم يعشْ له ولدٌ ذَكرٌ." (تاج العروس)

وهذا يعني أن الأبتر هو مَن وُلِدَ له ولدٌ ذَكرٌ ولكنه لم يعشْ، أو لم يولد أصلاً.

التفسير: ورد في الروايات أن هذه الآية نزلت ردًّا على طعن العدو، ولم يكن العدو يعيّر النبي ﷺ بأن لا أولاد له، وإنما قال بأنه ليس له ﷺ ولدٌ ذَكرٌ، وعليه فقوله تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ يعني: أن الأعداء يقولون إن محمدًا ليس عنده ولد ذَكرٌ، وأن عندهم أولادًا ذكورا، وسيرى هؤلاء أنهم كانوا يكذبون، إذ سيرى العالم أنه لن يبقى لهم ولد ذَكرٌ، وأن محمدا سيُعطيه الله ابنًا.

ولكننا عندما ننظر إلى الواقع، نجد أن أعداء الرسول ﷺ كلهم كانوا ذوي أولاد، وقد استمرّ نسلهم، ولم يبقَ أحدهم أبتر. خُذوا مثلاً أبا جهل، فكم كان عدوًا لدودًا للرسول ﷺ، ولكن كان عنده ابن اسمه عكرمة رضي الله عنه، وقد شبَّ ولا يزال نسله موجودا حتى اليوم، وإن كانوا لا ينتسبون إلى أبي جهل، بل ينتمون إلى مَن بعده من آبائهم وأجدادهم، وذرّيّته موجودة في الجزيرة العربية وفي الهند، وفي محافظة "سرجودها" في البنجاب أيضا.

وكان عتبة والوليد من كبار أعداء النبي ﷺ. لا علم لي بأولاد عتبة، لكن الوليد كان له ابن هو خالد رضي الله عنه الذي يفتخر به المسلمون اليوم. وكان من أولاد خالدٍ "عبدُ الرحمن" الذي يسمى في المصادر الإنجليزية (Sagacious Judge).. أي القاضي الحصيف؛ إذ كان ذكيًا عبقريا ووجيها، وقد أسدى للإسلام خدمات عظيمة.

وكان "العاصي" من أعداء النبي ﷺ، بينما كان ابنه "عمرو بن العاص" من كبار قادة الإسلام، فقد فتح مصر وقادَ حروب المسلمين في الشام، وخلّف ذريةً منهم

عبد الله بن عمرو، الصحابي المقرب إلى الرسول ﷺ، وقد آمن قبل أبيه وسنه ١٤ عاما، وكان له ذرية (الإصابة: عبد الله بن عمرو بن العاص).

إذن، فكان الأب العاصي يحارب النبي ﷺ من قبل الكفار، بينما كان الابن عمرو يحارب مدافعا عن الرسول ﷺ.

أما أبو سفيان الذي اشتهر بعدائه للإسلام فكان له ذرية؛ منهم معاوية، الذي ينتسب إلى عائلة بني أمية الذين حكموا إسبانيا، ولا تزال ذريته موجودة حتى اليوم.

إذن، فقد كان لأعدى أعداء الرسول ﷺ أولاد، بل إن الذين عيروه ﷺ بكونه أبتر كانوا أيضًا أصحابَ أولاد وذريات. أما الرسول ﷺ فقد وُلد له أولاد ذكور، لكنهم لم يعيشوا. لقد رُزق ﷺ في آخر عمره مِن زوجته مارية القبطية ابنَه إبراهيم عليه السلام، لكنه توفي وهو ابن سنتين. أليس غريبًا أن يعلن الله في قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، مما سيثبت أن عدوك هو الذي سيظل أبتر، ولن يكون له أولاد ذكور، بينما الواقع لا يصدّق هذا الإعلان الرباني، إذ كان لجميع أعدائه ﷺ تقريبًا أولاد ذكور، واستمر نسلهم أيضا، أما النبي ﷺ فلم يعش أحد من أولاده الذكور، وهكذا انتهى نسله المادي؟

هذا اعتراض كبير على هذه الآية، مما يجعل المسلم مذهولا حيران لا يدري بماذا يجيب.

أما الجواب فليكن معلومًا أن قوله تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ جاء مقابل قوله ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، وسبق أن بينتُ أن من معاني الكوثر الرجل المعطاء أو صاحب الخير الكثير●، وعليه فالآية تعني: إننا نبشّرك برجل كثير الخير والعطاء، فعليك أن تدعو الله تعالى وتضحي كثيرا شكرًا على هذه المنة الربانية، مما يجعل عدوك أبترَ.. أي محرومًا من الأولاد الذكور، ويجعلك صاحبَ أولاد ذكور. وقد بيّنت من قبل أن هذه الصفات -أي الرجل المعطاء وصاحب الخير الكثير- هي

● ورد في "القاموس المحيط": الكَوْثَرُ: "الرجُلُ الخَيِّرُ المِعْطاءُ". (المترجم)

صفات المسيح والمهدي، وبسببه قد أمَر الله نبيَّه قائلا: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾. إذن، فكما أن قوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ لا يشير إلى أبناء ماديين بل روحانيين، كذلك فقوله تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ لا يشير إلى أبناء ماديين بل روحانيين، إذ أخبر الله رسوله أن أعداءك سيظلّون دومًا محرومين من أولاد يتبعون عقائدهم، أما أنت فيكون لك أولاد ينشرون عقائدك. وبالفعل نجد أن عكرمة ﷺ الذي كان ابنًا ماديا لأبي جهل، أصبح بإسلامه ابنًا روحانيا للنبي ﷺ، مما يعني أنه ما كان لأبي جهل -رغم كونه والدًا لابن ذكر- أن يدّعي أنه صاحب أولاد. علينا أن نفكّر هنا ماذا كان العدو يقصد بتعييره الرسول ﷺ بكونه أبتر. إنما كانوا يقصدون أن لهم أولادًا ينشرون عقائدهم بعدهم، وليس لمحمد أولاد ينشرون تعاليمه بعده، ولذلك ستنتهي دعوته فور وفاته. ولكن ما حصل قد خيب آمالهم ومزاعمهم، فإن عكرمة ابن أبي جهل أسلمَ وأخذ ينشر عقائد محمد ﷺ وقدَّم للإسلام تضحيات عظيمة. كان أبو جهل يظن أنه إذا مات سينشر ابنه عقائده وأفكاره من بعده، أما محمد فلن تقوم دعوته، إذ لا أولاد له، ولكن زعمه هذا بطل بإسلام ابنه عكرمة.

ثم إن "الوليد" الذي كان من كبار أعداء الإسلام، يظن أن له أولادا ينشرون عقائده من بعده، ولكن ابنه "خالد" دخل في الإسلام وقدَّم في سبيله تضحيات رائعة، حتى أصبح بين المسلمين مضرب المثل في الشجاعة، إذ يقول المسلم لابنه: كُنْ خالدًا. كان الوليد يعادي النبي ﷺ عداء شديدا حتى إنه كان يلقي عليه القاذورات؛ فذات مرة جاء بكرشِ جزور وألقاه على النبي ﷺ وهو يصلي، ولكن ابنه خالد أسلم وأصبح يفدي النبي ﷺ بروحه وقلبه، وقضى حياته كلها في خدمة الإسلام. فدخوله في الإسلام جعل أباه أبتر، رغم كونه أبًا له.

أما "العاصي" فكان شيخا كبيرا، يعادي الإسلام عداء شديدا ويحرِّض الناس على المسلمين ليل نهار، ولكنّ ابنه عمْرًا أسلمَ وصار صحابيا جليلا، وفتَح مصر وحارب في سبيل الإسلام في الشام، فالعاصي أصبح أبترَ، لأن أولاده صاروا أبناءً للرسول ﷺ.

أما أبو سفيان فأسلم بنفسه، فلم يعُدْ يعادي النبي ﷺ، أما ابنه معاوية فأصبح من كبار خدام الإسلام.

باختصار، لا يستقيم معنى هذه الآية إذا فُسّر الأبتر من منظور الأولاد الماديين، ولكنها تصبح حقيقة ثابتة إذا فسّرنا الأولاد هنا بالروحانيين، ونستطيع القول إن أبا جهل كان أبتر؛ إذ لم يبق له أولاد ينشرون أفكاره وعقائده، وكان الوليد أبترَ لأن أولاده أيضا دخلوا في أتباع النبي ﷺ، وكان العاص أبتر لأن أولاده لم يعملوا على نشر أفكاره وعقائده، بل نشروا تعاليم الرسول ﷺ. لو فسّرنا الآية بمعنى الأولاد الماديين بطُل كلا الأمرين اللذَين أعلنتْ عنهما: فإنها أخبرتْ أولاً أن عدو النبي ﷺ لن يكون له ولدٌ ذكرٌ، مع أنه كان له أولاد ذكور؛ وأخبرت ثانيًا أنه سيكون للنبي ﷺ أولاد ذكور، مع أنه لم يعِش له أي ذكور. أما لو فسّرنا الآية بالمعنى الروحاني لثبت كلا الأمرين بجلاء، أعني لثبت أولاً أن كُلاً من أبي جهل والوليد والعاص صار أبتر، وثانيًا أن النبي ﷺ كان له أبناء روحانيون عملوا على نشر دعوته واستمرارها. أما عتبة فلا أذكر الآن ما إذا كان له نسل أم لا *، ولو كان له نسل فلا بد أن يكونوا قد انصهروا بين المسلمين. باختصار، قد قال الله تعالى هنا لرسوله ﷺ بأننا سنعطيك يا محمد ابنًا روحانيا كثير الخير يكون دليلاً على أنك لم تكن أبتر، بل كان عدوك هو الأبتر.

وهناك أمر آخر يجب أخذه بالحسبان، وهو أن الله تعالى قد سمى أزواج النبي ﷺ أمهات للمؤمنين، فأصبح النبي ﷺ أبا للمؤمنين، وصاروا كلهم أبناءه، والأبناء يشملون الذكور والإناث أيضا، ولكن الله تعالى يخبر هنا: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ..... إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾.. أي أننا نعطيك ابنًا روحانيا كثير الخير، وأن

* كان لعتبة بن ربيعة بن عبد شمس نسلٌ منهم الصحابي الجليل أبو حذيفة، الذي كان من فضلاء الصحابة ومن المهاجرين الأولين. صلّى القبلتين، وهاجر الهجرتين جميعًا. شهد بدراً وأحداً والخندق والحديبية والمشاهد كلها، وقُتل يوم اليمامة شهيدًا، وهو ابن ثلاث أو أربع وخمسين سنة. (الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج ٢ / ص ٢٠) (المترجم).

عدوك يظل أبتر. والآن لا بد من منصبٍ يُثبت أنه كان للنبي ﷺ أولاد ذكور، و لم يكن أبتر. وعندما نفكّر في الأمر من هذا المنظور نجد أن الإناث يشاركن الذكور في الإيمان، ويمكنهن أن يبلغن درجة الشهادة والصدّيقية مثل الرجال، ولكن النبوة هي المنصب الذي لم يوهب لهنّ، فهو خاص بالرجال، وحيث إن الرسول ﷺ قد بُشّر هنا بابن روحاني عظيم، فيكون مفهوم هذه الآية أن عدوك سيظل أبتر، بينما سيولد مِن نسلك رجل يتبوأ مقام النبوة. وهذا المعنى قد ذكره الله تعالى في آية أخرى أيضا إذ قال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾(الأحزاب:٤١). وسورة الأحزاب نزلت في السنة الرابعة للهجرة، حيث بيّن الله تعالى فيها أن محمدا ليس أبا أحد من رجالكم، أما سورة الكوثر فنزلت في أوائل النبوة، حيث أخبر الله فيها رسوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.. أي أن عدوك هو الذي سيظل محرومًا من الذكور، وأما أنت فلن تُحرَم منهم.

وهنا نجد تعارضًا كبيرًا بين الآيتين في الظاهر؛ حيث قال الله تعالى في سورة الكوثر أنه سيكون للنبي ﷺ أبناء ذكور، بينما أعلن في سورة الأحزاب أنه لن يكون له أبناء ذكور، وبتعبير آخر قد سلَّم القرآن بصحة الاعتراض الذي كان الكفار يثيرونه ضده ﷺ بأنه أبتر –والعياذ بالله– أي أنه ليس أبًا لأحد من الرجال ولن يكون.

والرجل يعني الإنسان البالغ، ومعظم المعاجم تقول: إنه الشاب، حيث ورد في تاج العروس: "إنما هو فوق الغلام وذلك إذا احتلم وشبَّ". بينما نجد بعض القواميس تقول أن الرجل هو الذكر، ولكن لا سند له في اللغة، إنما هو قول بعض العلماء. فقوله تعالى ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ إنما يعني أنه لم ولن يصل أحد أولاده الذكور سن البلوغ. مما يعني أن ما رُزق النبي ﷺ قبل هذه الآية وبعدها من أولاد ذكور لا يتنافى مع هذه الآية، إذ لم يبلغ أحدهم سن البلوغ. لقد رُزق النبي ﷺ قبل نزول هذه الآية الأبناء التالية أسماؤهم:

١: القاسم، الذي كُنِّيَ به النبي ﷺ واشتهر بأبي القاسم. ويتضح من التاريخ الصحيح أنه تُوفي في صغره، وإنْ ورد في بعض الروايات أنه توفي بعد أن بلغ سنّ ركوب الدابة. والحق أنها رواية ضعيفة، ثم إنه لم يرد في أي تاريخ ولا حديث أنه بلغ سن البلوغ.

٢: عبد الله، الذي لُقّب بالطيب، والطاهر أيضا، ويرى بعض المؤرخين أنه وُلد قبل دعوى النبوة، بينما يرى غيرهم أنه وُلد بعدها، والأصح أنه وُلد قبلها، لأن هذا ما تذكره الروايات القوية. أما لقباه الطيب والطاهر فلا يعرف ما إذا كان الرسول ﷺ هو الذي أطلقهما عليه أم غيره، أو أنه ﷺ سماه عبد الله، وأطلق عليه أبو طالب أو خديجه الطيبَ والطاهرَ، تعبيرًا عن حبهما له. ويتضح من الروايات الموثوق بها أنهما لقبان لابن واحد، وإن ورد في رواية ضعيفة أنهما اسمان لابنين. وقد توفي القاسم والطيب كلاهما في صغرهما، فالقاسم توفي وهو ابن ٧ أو ٨ سنوات. أما عبد الله فقد توفي وهو ابن سنتين أو ثلاث.

٣: أما إبراهيم فهو الابن الثالث، وقد وُلد بعد نزول آية خاتم النبيين في سورة الأحزاب، وذلك مِن مارية القبطية التي أهداها المقوقس حاكمُ مصر للنبي ﷺ. وقد وُلد في السنة الثامنة للهجرة وتوفي في ٢٩ من شوال السنة العاشرة للهجرة –وتاريخ وفاته بحسب التقويم الميلادي هو ٢٧–١–٦٣٧م●– أي أنه عاش نحو سنتين (السيرة النبوية لابن هشام: تزويج رسول الله ﷺ خديجةَ، والسيرة الحلبية: ج٣ باب ذكر أولاده).

لقد تبين من هنا أنه لم يصبح أيٌّ من أبناء النبي ﷺ الثلاثة رجلاً، وهذا ما بيّنه الله تعالى في هذه الآية، إذ قال أنه لم ولن يكون محمَّد أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ.. أي لم يبلغ أحد من أبنائه ﷺ سنّ البلوغ قبل نزول هذه الآية، كما لم يكن له ابن بالغ عند نزولها، ولن يبلغ أحد من أبنائه سن البلوغ بعد نزولها.. أي أن الله تعالى قد نفى أبوة الرسول ﷺ لأي رجل في الأزمان الثلاثة، وهكذا ألغى عادة التبني الشائعة بين العرب، إذ كانوا يُنْزِلون المتبنَّى منْزلةَ الابن الحقيقي.

● هكذا ورد في الأصل، والصحيح طبقًا للحساب هو: ٦٣٢. (المترجم)

وقد أدى هذا الإعلان الرباني إلى شبهة أخرى؛ فلو قال الله تعالى: ليس محمد أبا أحد من رجالكم، لما ثارت أية شبهة، إذ لم يكن للنبي ﷺ عندها ذكور بالغون، وكان الإخبار عن الماضي فقط دون المستقبل، أما قوله تعالى ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ فأنبأ فيه أنه لن يكون له ﷺ ذكور في المستقبل أيضا. وكأن الله تعالى قد فنّد صراحةً النبوءة الواردة في قوله تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾. لقد نزلت آية الأحزاب هذه في بداية السنة الرابعة للهجرة، ورُزق ﷺ في السنة الثامنة للهجرة ابنه إبراهيم عليه السلام الذي توفي في السنة العاشرة، مما يعني أن العدو فرح فرحتين: الفرحة الأولى عندما سمّى النبيَّ ﷺ أبتر، ثم بعد فترة امتدت إلى ١٦ سنة لم يولد له ﷺ خلالها ذكور بل لم يكن هناك أمل في الظاهر في ولادة ذَكر عنده، نزل قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، فقال العدو بأنه ﷺ بعد أن يئس من الذَّكَر غيَّر النبوءة الأولى ليستغلّ تعيير الكفار بعدم ولادة ذكور عنده قائلا بأنه لم يرزق الذكور بحسب هذه النبوءة. ولكن النبي ﷺ رُزق بعد انقطاع ١٩ سنة ابنًا سماه إبراهيم، ففرح العدو فرحة ثانية قائلاً: ها قد بطلت نبوءته الثانية أيضا بولادة ابن عنده. وما كان لمسلمٍ -لما يكنّه من حب شديد للرسول ﷺ- أن يجرؤ على القول أن هذا الابن لن يعيش أيضا، ولكنه توفي بعد سنتين فعلاً، وهكذا أزال الله اعتراض العدو على النبوءة الثانية، إذ لم يبلغ إبراهيم عليه السلام سن الرجال، غير أن الاعتراض الأول -بأنه ﷺ كان يدّعي أنه سيُرزق ذكورًا وأن عدوه هو الأبتر- ظلّ بحاله، ودحضًا لهذا الاعتراض قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رَسولَ اللهِ وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾. وحرف "لكن" يفيد الاستدراك.. أي أنه يدفع الشبهةَ الناشئة من الكلام السابق أو متعلَّقِه. ويقال: "لكنْ"، "لكنَّ"، "ولكنَّ".

والسؤال هنا: ما هي الشبهة التي نشأت من قوله تعالى ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُم﴾ واستُدركت بـ "لكن"؟

والجواب أن الله تعالى كان قد أخبر في سورة الكوثر أن عدو النبي ﷺ هو الأبتر، وأنه ﷺ سيُرزق ذكورا، بينما أخبر في آية الأحزاب أنه لم ولن يكون له ﷺ ذكور بالغون، فكان في القولين تناقضًا في الظاهر، فاستدركه الله تعالى بقوله:

﴿رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾. والواو هنا للعطف، مما يعني أن لفظ ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ قد جيء به لنفس الغرض الذي يحققه لفظ ﴿رسولَ الله﴾، ومثاله أن نقول: ذهب زيد وبكر، أي كلاهما ذهب، أو نقول: أكلتُ لحمًا وخبزا، أي أكلتُ كليهما. فلفظ ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ يدفع نفس الشبهة التي دُفعت بلفظ ﴿رسولَ الله﴾. والشبهة التي نشأت هنا هي: أنه إذا صحَّ أنه لم ولن يكون للنبي ﷺ أولاد ذكور بالغون، فقد بطلتْ نبوءة سورة الكوثر، وبالتالي فهو ليس رسول الله، ودرءًا لهذه الشبهة قال الله تعالى أولاً ﴿ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ﴾.. أي أن رسالته ثابتة بعشرات البراهين البيّنة لا بدليل واحد؛ إذ يدل على صدقه براهين في القرآن، وبراهين في التوراة، ودعاءُ إبراهيم، ونبوءاتُ عيسى وإشعياء وإرمياء وحزقيال وغيرهم من الأنبياء، التي قد انطبقت كلها عليه. فإذا اشتبه أمرُ تحقّقِ نبوءةٍ فهذا لا يعني أن النبوءات الأخرى قد بطلت. فمثلاً إذا أُصيبت أعصاب عين المرء بالفالج و لم يستطع أن يرى الشمس الساطعة في كبد السماء، فهذا لا يعني أن الوقت صار ليلا، إذ توجد هناك علامات أخرى –كضوء الشمس وحرارته وحركة الناس وانشغالهم بأشغالهم المختلفة– تدل كلها على أن الوقت نهار. فإذا وجد هذا المفلوج في عينه العالَم مظلمًا مع وجود علامات النهار، فهذا لا يعني أن الليل قد حلَّ فعلاً، كذلك إذا اشتبهتْ على أحد نبوءةٌ من نبوءات الرسول ﷺ، فهذا لا يقدح في رسالته. وهذا هو الدليل نفسه الذي قدّمه الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾(آل عمران:١٤٥).. وذلك أنه لما شاع بين الصحابة في غزوة أُحد أن النبي ﷺ قد قُتل وانهارت هممُ كثير منهم، أنزل الله هذه الآية ليقول لهم: إذا قُتل محمد ﷺ أو توفي، فهل تعتبرونه غيرَ صادق –والعياذ بالله– وترتدّون؟ وواضح أن المسلم ما كان ليشتبه في نبوة الرسول لمجرد موته ﷺ، إنما سببُه النبوءة الموجودة بحقه: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(المائدة:٦٨).. أي أن الله تعالى كان قد وعده ﷺ بعصمته من القتل بأيدي الناس، فلو قُتل لبطلت هذه النبوءة. وقد أشار الله تعالى هنا إلى الأمر نفسه وقال بأن عدْم تحقُّق نبوءةٍ ما، لا يمكن أن يدل على كذب محمد، وإنما يثبت كذبه إذا لم توجد فيه شروط النبوة،

وعدم القتل ليس شرطًا للنبوة، فكيف ثبت كذبه ﷺ بسبب عدم تحقق نبوءة واحدة؟ فما دامت هناك عشرات الأدلة والبراهين الأخرى على صدقه، فعلينا أن نفهم أن لهذه النبوءة -التي لم تتحقق في رأينا- معنى آخر لم نستوعبه؛ إذ لو كان كذابًا لما تحققت فيه العلامات والأدلة الأخرى التي تدل على نبوّته.

وهذا الدليل نفسه قد أورده الله هنا وقال بأن صدق محمد في رسالته ثابت ببراهين أخرى منها تحقُّقُ نبوءاتٍ بحقه ﷺ قد أدلى بها موسى وعيسى وداود وإشعيا وإرميا ودانيال وغيرهم من الأنبياء وقد تحققت لصالحه، وكتابٌ منقطع النظير قد نزل عليه، وقوةٌ قدسية أُعطيَها، وغلبةٌ كُتبتْ له على أعدائه، وتأييدٌ رباني حالفه؛ وبعد رؤية كل هذه البراهين الدالة على صدقه ﷺ، إذا لم يستوعب أحد دليلاً من أدلة صدقه، فليدركْ أنه قد أخطأ وأن محمدا ﷺ صادقٌ باليقين.

إذن، فبقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ قد دحض الاعتراضَ القائل أنه ﷺ كان كاذبا -والعياذ بالله- إذ لم يعش له أولاد ذكور، حيث بين الله تعالى أنه استنتاج باطل. فمع أن مضمون هذه الآية يتعارض في الظاهر مع مفهوم قوله تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، إلا أنه لا شك في صدق محمد ﷺ، لأنه رسول الله، بمعنى أنه جاء برسالة مفصَّلة من الله، وإذا شككت في أمر ما ولم تستوعب دليل صدقه فيه، فماذا تفعل بآلاف الأدلة الأخرى على صدقه؟ الحق أنه إذا انكشف على المرء صدقُ نبوءة واحدة منسوبة إلى الله تعالى واشتبهَ عليه أمر عشرة أو عشرين نبوءة أخرى، فمن مقتضى التقوى ألا يسارع إلى التكذيب، لأن من المحال عليه أن يؤول النبوءة الواحدة التي قد تحققت بتأويل يصرفها عن حقيقتها. أما إذا تحققت مئات النبوءات ولم يفهم حقيقة نبوءة واحدة فقط، فمن واجبه ألا يسارع إلى التكذيب بسببها، بل يجب أن يتّهم عقلَه ويخطِّئه، ولا يكذب النبوءة، بل يعتبرها قابلة للشرح والتأويل.

قد يقول قائل بعد ذلك: صحيح أن اشتباه نبوءة من النبوءات لا يبطل دعوى النبي ﷺ، بل هو صادق فيها، ولكن مِن واجب الله تعالى أن يزيل شبهتي أيضًا؟ فجاء الرد على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، والخاتم هو ما يُختم به،

والختم هدفه التصديق، فقد ورد في الحديث أن الرسول ﷺ لما أراد بعث رسائله إلى الملوك قال له بعض أهل الخبرة من الصحابة أن الملوك لا يبالون برسالة غير مختومة، فصنع ﷺ ختمًا رسُمه كالآتي:

حيث جاء لفظ "محمد" منقوشًا في الأسفل، وفوقه "رسول" وفوقهما "الله". لقد صنع ﷺ هذا الختم ليختم به رسائله تصديقًا منه بأنه مرسل من عند الله تعالى (البخاري: كتاب اللباس). وهذا ما تفعله المحاكم أيضا في هذه الأيام، حيث تقول: إن الإعلان يصدر بختم المحكمة، أي بتصديقها. فالمراد من كون النبي ﷺ ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ أنه مصدّقهم، فمن كان عليه ختمه ﷺ فهو نبي حق، ومن لم يكن عليه ختمه فليس بنبي حق.

ثم إنك لا تضع الختم على كل شيء، وإنما على ما هو مِلْكٌ لك، فقوله تعالى ﴿وَخاتَمَ النَّبِيّينَ﴾ إشارةٌ إلى أنه ليس بعد النبي ﷺ نبوة إلا التي تكون تابعة له وخادمة. فلو ادعى بعده أحد أن نبوة محمد ﷺ قد انتهت –والعياذ بالله– فلا شك في كونه كاذبًا، لأن عصر نبوته ﷺ لن ينتهي إلى يوم القيامة. بل لو ادعى أحد أنه يماثل النبي ﷺ درجةً فهو أيضا كاذب، إذ لا يمكن أن يماثله أحد درجةً. أما من يعلن أن الله تعالى قد أقامه لنشر دين محمد ﷺ، وأن كل ما ناله من درجة وفضل إنما ناله ببركة طاعته واتّباعه للنبي ﷺ، ثم كان القرآن وحديث النبي ﷺ مصدّقيْن له، فلا بد أن يكون صادقًا في دعواه، لأنه مختوم بختم النبي ﷺ، ومَن خُتم بختمه ﷺ فلا بد أن يكون هو ابنه الروحاني، لأنه من أمته ومن تلاميذه.

والحق أن هذا الابن الروحاني هو الذي قد بُشِّر به النبي ﷺ في سورة الكوثر، ولكن الناس ظنوا خطأً أن الحديث فيها عن الابن المادي. فأزال الله تعالى في سورة الأحزاب هذا اللبس وقال بأنكم قد أخطأتم في تطبيق آية الكوثر على الأولاد الماديين، مع أننا نقصد أن محمدا ﷺ وحده يتبوّأ ذلك المقام الأسمى بأن الإنسان

يمكن أن ينال ببركة طاعته واتباعه ﷺ درجة النبوة أيضًا. وهذا المقام إنما يوهب للرجال دون النساء، فإذا تبوّأ أحد من أمة محمد ﷺ هذا المقام، كان هذا دليلاً على أن له ﷺ أبناء روحانيين، أما أعداؤه فلا أبناء روحانيين لهم. وبتعبير آخر إن سلسلة أبنائه ﷺ الروحانيين ستمتدّ إلى يوم القيامة بحيث سيتبوّء أتباعه أسمى الدرجات الروحانية ببركة طاعته ﷺ، مما يكون دليلاً على أن الله تعالى قد أعطاه أبناء ذكورا، بينما ظل أعداؤه محرومين من أبناء روحانيين.

ثم إن نبوة الأنبياء السابقين لا تثبت إلا بتصديق النبي ﷺ، إذ كيف يمكن أن نصدّق نبوة موسى وعيسى -ناهيك عن نبوة الأنبياء الآخرين عليهم السلام- لولا أن القرآن قد صدّقهما؟ ذلك أن نبوة موسى عليه السلام لا تثبت بما ورد في التوراة من أحواله، ولكن القرآن يعلن أنه كان نبيا صادقا، ولذلك نؤمن بنبوته. فلم نؤمن بموسى عليه السلام لأن التوراة تقول بنبوته، وإنما آمنّا بنبوته بسبب ختم النبي ﷺ على نبوته. كذلك نؤمن بنبوة عيسى عليه السلام لأن القرآن الكريم يقول ذلك، وإلا لن نستطيع أن نصدقّه بناءً على ما ورد في الإنجيل عنه، إذ يقول الإنجيل بأنه كان يشرب الخمر مرة بين ضيوف، فنفدت الخمر، فقلقتْ مريمُ التي كانت هناك، فأخبرتْ عيسى عليه السلام، فمسح جرار الماء بيده، فصارت خمرا (يوحنا ٢: ١-١١).

ثم ورد في الإنجيل أيضا أن تلاميذ المسيح -عليه السلام- دخلوا زرعًا وأكلوا ثماره من دون إذن صاحبه، فاشتكى إلى المسيح، فنهره بدلاً من أن يلوم تلاميذه، وقال: لا يمكن أن يعترض أحد على أكل الثمر والعريس موجود. (متى ١٢: ١-٨)

وكذلك ورد في الإنجيل أن المسيح عليه السلام أدخل الجنَّ في قطيع من الخنازير، فقفزت كلها في النهر وهلكت.. أي أنه أصاب صاحبها بخسارة مالية كبيرة (لوقا ٨: ٢٦-٣٤).

فكيف يمكن أن نصدّق بعيسى عليه السلام مع وجود هذه الأحداث في الأناجيل؟ إنما نؤمن بأن المسيح عليه السلام نبي الله، لأن القرآن يعلن أنه نبي الله، ولأن محمدًا ﷺ يقول إنه نبي الله.

كذلك لو قام بعد النبي ﷺ مدّعٍ مكذِّبًا تعاليم النبي ﷺ وعائبًا عليه، فلا بد أن نعتبره كذّابا؛ إذ ليس على نبوته ختم النبي ﷺ. أما إذا قام أحد معلنًا أنه يتّبع خطوات النبي ﷺ، ثم كانت نبوءاته ﷺ تؤيده وتدعمه، فبعثتُه لن تسيء إلى النبي ﷺ، إذ يأتي لكشف محاسنه، ولن يكون شخصا مغايرا، بل يكون ابنًا روحانيا له.

وأرى لزامًا عليَّ أن أذكر أن عامة المسلمين يفسّرون ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ بأنه آخر الأنبياء محتجين بحديث الرسول ﷺ: "أنا آخر الأنبياء، ومسجدي آخر المساجد" (مسلم: كتاب الحج).

فالسؤال هنا: ماذا يعني هذا الحديث؟

والجواب: أن مقطعه الثاني يفسّر مقطعه الأول. فالنبي ﷺ لم يكتفِ بقوله: "أنا آخر الأنبياء"، بل أردفه بقوله: "ومسجدي آخر المساجد". فهل من مسلم يمكن أن يفسر قوله "ومسجدي آخر المساجد" أنه لا يجوز بناء أي مسجد بعد المسجد النبوي؟ لقد بنى المسلمون بعد مسجده ﷺ آلاف المساجد في العالم، ولا أحد ينكر قداستها. فلو كان قوله ﷺ: "ومسجدي آخر المساجد" يعني أن مسجده آخر مسجد تشييدًا، فلماذا يبني المسلمون المساجد في كل دولة وإقليم ومدينة وبلدة وقرية؟ إن تشييدهم المساجدَ في كل مكان دليلٌ ساطع على أنهم يفهمون من قوله ﷺ: "آخر المساجد" أنه لا يمكن أن يسمى مسجدًا إلا ما يُبنى اقتداءً بالمسجد النبوي. فما دام تشييد المساجد الأخرى بعد مسجد النبي ﷺ اقتداءً به لا يتنافى مع كون مسجده "آخرَ المساجد"، فكيف يكون مجيءُ نبيٍّ تابعٍ له ﷺ ومِن أمّته وغيرِ منفصل عنه منافيًا لكونه "آخر الأنبياء"؟ يبدو أن الرسول ﷺ قد توجس الخطر من الوساوس التي قد تساور الناس في المستقبل بهذا الشأن، فأردف قوله "أنا آخر الأنبياء" بقوله "ومسجدي آخر المساجد".. تبيانًا بأن المسجد الذي يُبنى اقتداءً بمسجده لا يكون ناقضًا لكون مسجده آخر المساجد، كذلك فإن النبي الذي يأتي من أمته ﷺ تابعًا له ومتّبعًا خطواته فلا يكون ناقضا لكونه آخر الأنبياء. وبتعبير آخر: إن الذي يدّعي بالنبوة غيرَ متّبعٍ خطواتِه ﷺ، ومستقلاً عنه، ومنكرًا فيوضه، فلا شك أنه يتنافى مع كونه ﷺ آخر الأنبياء، أما الذي يأتي متّبعًا خطواته، ومقيمًا

لشريعته، وناطقًا بشهادته، ومصليًا صلاة الإسلام، وعاملاً بتعاليمه، فلا تتنافى نبوته مع كون النبي ﷺ آخر الأنبياء، تماما كما أن المسجد الذي تكون قبلتُه كقبلة مسجد الرسول ﷺ، وتؤدَّى فيه الصلوات كما تؤدى في مسجده، وتُقرأُ في هذه الصلوات نفس الكلمات التي كان يقرأها النبي ﷺ في صلواته، فلا يكون هذا المسجد ناقضًا لكون مسجده آخر المساجد. إذا بُني مسجد كهذا فلا يعني ذلك أبدًا أن المسجد النبوي لم يعُد آخر المساجد، كلا بل هو جزء من مسجده، وجزء الشيء لا يكون ناقضًا له، كذلك فإن النبي الذي يكون تلميذًا للرسول ﷺ وابنًا روحانيًا له، وفائزا بهذه المكانة ببركة فيوضه ﷺ، ومقيمًا لشريعته ودينه، فهو أيضا لا يتنافى مع كونه آخر الأنبياء، ويُعتبر جزءًا منه ﷺ. إنما مَثَله كمثل اليد التي تكون جزءًا من الجسد، ومتى يقول أحد بأن اليد شيء والجسم شيء آخر؟ إنما مَثله كمثل ظله، ومتى يقول أحد بأن الظل شيء مناف للأصل؟

باختصار، إن قول النبي ﷺ: "ومسجدي آخر المساجد" شرح لقوله: "أنا آخر الأنبياء"، فكما أن بناء مسجد اقتداءً بمسجده ﷺ لا يخالف كون مسجده آخر المساجد، كذلك فإن بعثة نبي تابع للرسول ﷺ لا تتنافى مع كونه آخر الأنبياء.

ومما يحتج به خصومنا حديث "لا نبي بعدي" (البخاري: كتاب الأنبياء). ولو فسّرنا هذا الحديث بأنه لا يكون أي نبي بعد وفاة النبي ﷺ، فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا: هل يمكن أن يُبعث نبي في حياته ﷺ؟ ما دام النبي ﷺ قد بُعث إلى العالم كله فكيف يمكن أن يُبعث نبي آخر في حياته؟ وما دام لا يمكن أن يبعث نبي آخر في حياته، فالسؤال: ما هو المراد من قوله ﷺ لا نبي بعدي أي بعد وفاتي؟ الحق أنما المراد من قوله هذا بأنه لن يأتي على نبوته ﷺ زمن تنتهي فيه. وهذا صحيح ١٠٠%، وهذا ما نؤمن به، فعصر نبوته ﷺ ممتد إلى يوم القيامة. وإذا كنا نؤمن بنبوة المسيح الموعود عليه السلام، فإننا نؤمن أيضا أنه خادم كامل للرسول ﷺ ومقيم لشريعته، ولم يأتِ بشهادة جديدة ولا صلاة جديدة. كان الناس قد نسوا أحكام القرآن الكريم، فبعثه الله تعالى ليحيي دين المصطفى ﷺ من جديد؛ مما يعني أن نبوته عليه السلام نبوة ظِلّية، والظلّ لا يكون منفصلا عن أصله، وإنما هو انعكاس له. فثبت أن

مفهوم الحديث "لا نبي بعدي" و"ومسجدي آخر المساجد" بالمعنى نفسه. إن النبوة المسيئة إلى الرسول ﷺ إنما هي تلك التي ينسخ مدّعيها نبوة الرسول ﷺ، وينكر فيوضه الروحانية، ويعلن أن نبوته مستقلة، وأنه قد نالها من دون وساطة الرسول ﷺ، وينسخ أحكامه ﷺ وشريعته كليًّا أو جزئيًّا، ولو كان حُكمًا واحدا؛ ومن ادعى ذلك فإن قول النبي ﷺ "لا نبي بعدي" يعدّه من الكاذبين، ولا بد أن نعدّه من الكافرين الدجالين، ولن يصدّقه حتى أضعف المسلمين. بل الحق أن خلافنا مع خصومنا من المسلمين ليس إلا لقولهم بأن عيسى عليه السلام سينزل من السماء في الزمن الأخير، أما نحن فنقول: كان المسيح نبيًّا من سلسلة النبوة الموسوية، و لم ينَل نبوته ببركة فيوض النبي ﷺ، والاعتقاد بعودة نبيّ كهذا الذي ليس خادمًا للرسول ﷺ إساءةٌ بالغة إليه، إذ يعني ذلك أنه لما فسدت أمة الرسول ﷺ فلم يبعث الله تعالى لإصلاحها أحدًا من بينها، بل اضطرّ الله تعالى لأن يعود بنبي بُعث قبل ألفي سنة. وأيُّ شك في أن مثل هذه العقيدة تمثّل إساءة بالغة للرسول ﷺ، لأن معنى ذلك أن أمة المصطفى ﷺ احتاجت إلى أمة موسى عليه السلام. وهذا اعتقاد لا يطيقه أي مسلم صادق. الغريب أن هؤلاء القوم يسمّون الرسول ﷺ سيّدَ وَلَدِ آدمَ وسيّدَ الأنبياء من جهة، ومن جهة أخرى يزعمون أن أُمّته ﷺ حين تفسد سيُبعَث لإصلاحها نبيٌّ من خارجها.. أي من أمة موسى عليه السلام؛ إذ لن يوجد في أمة المصطفى ﷺ شخص قادر على إصلاح فسادها. إنما يماثل اعتقادهم قولَ قومٍ يهاجمهم العدو فيقولون: لا شك أن ملِكنا قويّ جدًّا، ولكنه لا يملك جيشا يتصدى للأعداء، فيجب أن يأتي جيش من الخارج ليدافع عنا.

يستغرب المرء من عقول هؤلاء القوم، إذ كيف فقدوا الصواب لهذا الحد! كيف يؤمنون أن أُمّة الرسول ﷺ عندما تتعرض لهجمة الشيطان، فلن يكون عنده ﷺ أيّ جيش، بل يأتي نبيٌّ من أنبياء بني إسرائيل للدفاع عنه ضد عدوهم، وهكذا يجعل النبيَّ ﷺ تحت منّته. إننا نرى أن مثل هذه العقيدة بشعة ظالمة مسيئة جدًّا إلى الرسول ﷺ ولن يرضى بها مَن يملك ذرّةً من الإيمان وحُبِّ الرسول ﷺ.

وليكنْ معلومًا أن قوله ﷺ: "أنا آخر الأنبياء" لو فُسّر بكونه آخرَهم مبعثًا، فسيعني ذلك أنه ﷺ واقفٌ في آخر صف الأنبياء فقط، كما هو ظاهر من الترتيب التالي:

الله تعالى، أنبياء آخرون، محمد رسول الله ﷺ، ثم الناس كلهم.

والواضح أن الذي يقف في آخر الصف لا يكون أفضلَهم حتى يُعتبر هذا ميزةً للرسول ﷺ. إنما مَثَلُ قول خصومنا هذا كقول من يقول: إن الجندي الأخير في صف الجنود هو أفضلُهم لأنه واقف في آخرهم، مع أنه لا فضل في وقوفه في آخرهم، وإنما هو جندي كغيره من الجنود. فلو اعتبرنا محمدًا ﷺ في آخر صفّ الأنبياء -كما يقول العلماء غير الأحمديين- فليس فيه ما يدل على فضله، وإنما يدل على أنه نبيّ كأحد الأنبياء.

والأغرب من ذلك أن هذا الحديث إذا سمّى الرسول ﷺ آخر الأنبياء، فهناك حديث آخَر يجعله أول الأنبياء، إذ قال النبي ﷺ: "كنتُ عبد الله وخاتم النبيين وآدمُ منجدلٌ في طينه"* .. أي حين كان آدم لا يزال في المرحلة الطينية من تطوُّر خلْقه. مما يعني أن النبي ﷺ كان خاتم النبيين حتى قبل ولادة آدم عليه السلام، وبتعبير آخر كان أوّلَ النبيين. والآن لو اعتبرنا النبي ﷺ في آخر صف الأنبياء -كما يقول العلماء غير الأحمديين- فلا يبقى أوّلَ الأنبياء، أما إذا اعتبرناه أوّلَ الأنبياء فلا يبقى آخرَهم. ولكن لو قرأنا الحديثين على ضوء كشف للرسول ﷺ لاستقام معناهما تماما.. أي ثَبتَ أنه ﷺ أوّلُ الأنبياء وآخرُهم أيضا، وأنه أفضلهم أيضًا. فقد أخرج أحمد بن حنبل في مسنده أن النبي ﷺ قال: عندما صعدتُ إلى السماء خلال المعراج، رأيت آدم عليه السلام في السماء الأولى، فصعدت إلى السماء الثانية فرأيت فيها عيسى عليه السلام، ثم صعدت إلى الثالثة فرأيت فيها يوسف عليه السلام، فصعدت إلى الرابعة فرأيت فيها إدريس عليه السلام، فصعدت إلى الخامسة فرأيت هناك هارون عليه السلام، فصعدت إلى

* أقرب نص وجدناه بهذا المعنى هو: "إني عند الله في أول الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدلٌ في طينته". (المستدرك للحاكم، ذكر أخبار سيد المرسلين وخاتم النبيين ﷺ)

السادسة فرأيت فيها موسى عليه السلام، فصعدت إلى السابعة فرأيت هنالك إبراهيم عليه السلام، قال لي جبريل: اصعدْ، فصعدت حتى وصلت إلى سدرة المنتهى، فلقيتُ الله هنالك (مسند أحمد: مسند الشاميين).

وهذا الصعود إلى الله تعالى يوضّحه الرسمُ التالي:

سدرة المنتهى	سيدنا محمد رسول الله ﷺ
السماء السابعة	سيدنا إبراهيم عليه السلام
السماء السادسة	سيدنا موسى عليه السلام
السماء الخامسة	سيدنا هارون عليه السلام
السماء الرابعة	سيدنا إدريس عليه السلام
السماء الثالثة	سيدنا يوسف عليه السلام
السماء الثانية	سيدنا عيسى عليه السلام | سيدنا يحيى عليه السلام
السماء الأولى	سيدنا آدم عليه السلام

أهل الأرض

فمَن نظَر إلى هذا الرسم واقفًا من جهة أهل الأرض رأى آدمَ أولاً والنبيَّ ﷺ في آخر الأنبياء، وكأنه يعتبر النبي ﷺ آخرَ الأنبياء، وهكذا يصحّ حديث "أنا آخر الأنبياء"، كما أنه سيعتبر النبيَّ ﷺ أفضلَهم أيضًا، لأنه ﷺ قد تجاوزَ آدمَ وعيسى ويوسف وإدريس وهارون وموسى وإبراهيم كلهم. أما إذا نظَر المرء إلى هذا الرسم من جهة الله تعالى، وجَد النبي ﷺ قبل إبراهيم وموسى وهارون وإدريس ويوسف وعيسى وآدم عليهم السلام، وهكذا يصبح النبي ﷺ أوّلَ الأنبياء وآخِرَهم أيضا،

ولكن بالمعنى الذي ذكرتُه، وإلا فقوله ﷺ: "كنتُ خاتم النبيين وآدم منجدل في طينه" لا يصحّ من حيث الولادة!

والمعنى الذي ذكرته آنفًا يشرح معنى الحديث الذي قال فيه النبي ﷺ: "أوتيتُ فواتحَ الكَلِمِ وجوامعَه وخواتمَه" (مسند أحمد، مسند عبد الله بن عمرو)، لأن الذي يكلّمه اللهُ تعالى في أقرب مقام إليه، لا بد أن يُعطى "فواتحَ الكَلِمِ"، أما إذا نظرنا إليه ﷺ من جهة مقام العباد، فلا بد أن يُعطى "خواتم الكلم"، لأنّ الأنبياء الآخرين قد تلقّوا من الله تعالى وحيهم وهم في مقام أدنى من مقامه ﷺ، ثم لما كان ﷺ قد تجاوز مقام الأنبياء الآخرين لتلقي وحيه فأُعطي "جوامع الكلم". الواقع أن الحديثين: "لا نبي بعدي"، و"أنا آخر الأنبياء" مبنيّان على حادث المعراج الذي يشرحهما، ولكن المسلمين الآخرين استنتجوا منهما خطأً أن النبوة بكل أنواعها قد انتهت بعد الرسول ﷺ.

ويبدو أن الصحابة أنفسهم أدركوا أن الناس سوف يميلون إلى الإفراط في عقيدة ختم نبوة الرسول ﷺ، ولن يستوعبوا قصده ﷺ وراء تركيزه على ختم نبوته، فأقوالهم التالية تلقي الضوء الكافي على هذا الأمر:

أولا: لقد نقل صاحب الدر المنثور عن ابن أبي شيبة أن عائشة -رضي الله عنها- سمعتْ بعض الصحابة يقولون إنه خاتم النبيين ولا نبي بعده، فقالت في حماس: "قولوا: خاتم النبيين، ولا تقولوا: لا نبي بعده" الدر المنثور، تفسير سورة الأحزاب). وبديهي أن عائشة ما كانت لترفض ما قاله الرسول ﷺ، إذ كيف يمكن أن يقول: لا نبي بعدي، وتقول هي: لا تقولوا: لا نبي بعده؟ هذا محال منها. إنما كان مرادها أن كلمة ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ موجودة في القرآن الكريم ولا يمكن أن يخطئ أحد فيها، أما قوله ﷺ "لا نبي بعدي" فيمكن أن يسيء البعض فهمه، ولذلك قالت: قولوا خاتم النبيين، ولا تقولوا لا نبي بعده. إن العارف يعلم أن قول

الله تعالى ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، وقولَه ﷺ "لا نبي بعدي"، إنما معناهما أنه لن يكون بعده ﷺ مَن ينسخ دينه وشريعته، أما السذَّج فيمكن أن يظنوا منه أنه لن يكون بعده ﷺ نبي ولو كان تلميذًا له وناشرًا لدينه. لذلك قامت عائشة -رضي الله عنها- بهذا التوجيه وقالت: "قولوا خاتم النبيين ولا تقولوا لا نبي بعده"، كي لا تنتشر بين الناس عقيدة خاطئة تماثِل ما حدث بقول آخر للنبي ﷺ، وبيانه أنه قد ورد في الحديث أن النبي ﷺ كان جالسًا بين صحابته في المسجد، فخرج ولم يرجع فترة طويلة، فخاف عليه الصحابة، إذ كانت المدينة في تلك الأيام مهددة بخطر هجوم الروم المسيحيين، فخرجوا بحثًا عنه. ويقول أبو هريرة أنه وصل إلى بستان له جدار وله باب كبير مغلق، فلم يصبر فدخل إلى البستان من فتحة تحت الجدار كما تدخل القطط، فرأى النبي ﷺ جالسا هناك، فقال: يا رسول الله، لقد خفنا عليك جدًّا، فالحمد لله على سلامتك. فقال له النبي ﷺ: اذهبْ وبشِّرْ مَن وجدته بأن مَن قال "لا إله إلا الله"، دخل الجنة. قال: يا رسول الله، مَن يصدّقني على هذا الأمر العظيم! فأعطِني علامة. فأعطاه نعليْه. فخرج ولما وصل إلى الباب وجد عمرَ ﷺ قادما، فقال له: لقد أمرني رسول الله ﷺ أن أبشّر كل من ألقاه أن مَن قال لا إله إلا الله دخل الجنة. فدفَع عمر بيده في صدره وقال: أتريد أن تفسد إيمان الناس؟ فجرى أبو هريرة إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، لقد أمرتَني أن أبشّر الناس، ولكن عمر ضربني. ثم جاء عمر وقال: يا رسول الله، أقلتَ له أن مَن قال لا إله إلا الله دخل الجنة؟ قال: نعم. قال: يا رسول الله، إذنْ سيترك الناس العمل. فنهى النبي ﷺ عن إعلان ذلك (مسلم، كتاب الإيمان).

هذا يعني أن الرسول ﷺ قال أولاً شيئا، ثم نهى عن إعلانه.

ومن الناس من يقول إن هذه البشرى تخصّ عمر، فلما بلغتْه نهى النبيُّ ﷺ عن إعلانها بين الناس. لكن هذا الفهم غير صحيح، بل الواقع أن هذه البشرى تخص

كل مؤمن، وكان الرسول ﷺ يعني به أن كل من قال لا إلـــه إلا الله بـــصدق، ثم عمِل بحسبها، دخل الجنة حتمًا؛ إذ كيف يمكن أن يؤمن أحد بالله تعالى ثم لا يعمل بأحكامه ووصاياه؟ فثبت أن المراد من قوله ﷺ هذا أن من قال لا إله إلا الله بصدق وإخلاص فلا بد أن يدخل الجنة، وليس المراد أن من تفوه بأن لا إله إلا الله بلسانه فقط دخل الجنة، كما يظن عامة المسلمين اليوم.

باختصار، قال عمر للرسول ﷺ أن الناس سيأخذون بألفاظك دون اســـتيعاب رسالتك، فيظنون أن لا حاجة لهم للعمل الآن، ولذلك نهى النبي ﷺ عن القيام بهذا الإعلان.

وبالمثل فإن عائشة –رضي الله عنها– خافت أن يظن الناس من قول الـــنبي ﷺ "لا نبي بعدي" أنه لن يكون بعد الآن كبارُ الصلحاء في الإسلام، أو أن باب النبوة قد أُغلق الآن إلى الأبد، فنهتْهم عن قول "لا نبي بعده". أما كلمة ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ فهي كلمة قرآنية لا يمكن أن ينخدع بها أحد، فقالت: يمكن أن تكتفوا بقـــولكم ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، دون أن تقولوا أنه لن يكون بعده نبيّ. مما يدل على أنها –رضـــي الله عنها– كانت تؤمن أن القول بانقطاع النبوة كليةً يتنافى مع تعليم الإســـلام، إذ لو كان باب النبوة مغلقا إلى الأبد فلماذا قالت لهم "لا تقولوا لا نبي بعده" مع أن الرسول ﷺ نفسه قد قال "لا نبي بعدي". لقد قالت ذلـــك لأنهـــا رأت أن لفـــظ ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ أحوطُ وأبعدُ عن سوء الفهم، ثم هي كلمة قرآنية، فيمكنـــهم أن يقولوا إنه ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، أما كلمة "لا نبي بعده" فهي صحيحة في حد ذاتها، غير أن هناك احتمالا أن يسيء الناس فهمها لأسباب أخرى، فنهتْهم عن استعمالها على عمومها.

يعترض البعض على هذه الرواية قائلين: ما دامت هذه كلمات الرسول ﷺ، فكيف يحقّ لعائشة أن تمنع مِن استعمالها؟ مما يدل أنها لم تكن على علم بها، فنهتْ عن ترديدها، والفتوى المبنية على عدم العلم لا قيمة لها ولا يؤخذ بها.

والجواب أن هذه القضية تتعلق بالقرآن الكريم، وقد كثرت الأحاديث بشأنها، فلا يُفترض عدم علم الصحابة إلا بقضية لا يعلمها إلا القلة، أما هذه القضية فهي ليست من هذا القبيل، فلا يمكن القول أن عائشة -التي قال الرسول ﷺ عنها: تَعلَّموا منها نصف الدين- كانت تجهل هذه القضية.

ثم إن كلمات هذه الرواية تبين أن عائشة -رضي الله عنها- قالت هذا الكلام لجماعة من الناس، أو كانت تكثر من قولها هذا، وعليه فلا يمكن أن يُتصوَّر أن أحدا منهم لم يرفض قولها أو لم يفنّده رغم انتشاره الواسع بينهم، إذا وجده خاطئًا. فثبت أنها كانت على علم بحديث الرسول ﷺ "لا نبي بعدي"، ومع ذلك كانت تنهى عن ترويج هذه الكلمات كي لا يسيء الناس فهمها.

أما الاعتراض بأنه كيف يمكن أن يُمنَع أحدٌ من ترديد ما قاله النبي ﷺ، فهو ليس في محله، إذ لم تمنع عائشة -رضي الله عنها- من استعمال تلك الكلمات، وإنما من استعمالها الخاطئ.. تماما كما أشار عمر ﷺ على النبي ﷺ أن ينهى عن الإعلان أن "من قال لا إله الا الله دخل الجنة"، ليس لأنها عبارة خاطئة، إذ كيف يحقّ لعمر أن يعتبر كلام النبي ﷺ خاطئا؟ إنما لأنها عبارة لا يستوعب معناها الصحيح إلا أهل الفهم، أما العامة فقد يسيئون فهمها.

والرواية الثانية أيضا من ابن أبي شيبة وهي: قال رجل عند المغيرة بن شعبة: صلّى الله على محمد خاتم الأنبياء لا نبي بعده، فقال المغيرة: حسبك إذا قلتَ خاتم الأنبياء، فإنا كنا نحدّث أن عيسى عليه السلام خارج، فإن هو خرج فكان قبْله وبعْده. (الدر المنثور، تفسير قوله تعالى: "وخاتم النبيين"). لقد تبين من هذه الرواية ما يلي:

أولا: ما كان المغيرة بن شعبة يفهم من قوله تعالى ﴿وخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ أنه لن يبعث بعده أي نبي.

ثانيا: أن كلمة "لا نبي بعده" ليست أَحْوَطَ، كما هي كلمة "خاتم النبيين".

ثالثا: أنه كان يؤمن بإمكانية مجيء نبي بعد الرسول ﷺ.

رابعا: أنه لم يكن يؤمن بأن عيسى عليه السلام حيٌّ في السماء؛ إذ لم يقل إنه نازلٌ من السماء، بل قال: كنا نحدِّث أن عيسى عليه السلام خارج.. أي خارج من الأرض. فكان يرى على ما يبدو أن عيسى عليه السلام قد توفي، ولكنه سيُعاد إلى الحياة ويُبعث ثانية، لذلك لم يقل إنه نازل من السماء، بل قال خارج.

أما الرواية الثالثة فقد ذكرها ابن الأنباري في كتاب "المصاحف"، فعن عبد الرحمن الأسلمي قال: كنت أُقْرِئُ الحسنَ والحسين، فمرّ بي عليّ بن أبي طالب وأنا أُقرئهما "خاتِم النبيين" بكسر التاء، فقال: أَقْرِئْهما ﴿خَاتَمَ النبيين﴾ بفتح التاء والله الموفق. فسيدنا عليّ رضي الله عنه يفتي أن قراءة "خاتِم النبيين" تابعة لقراءة "خاتَم النبيين" بفتح التاء، ولكن المشايخ يقولون أن العكس هو الصحيح. لو كان معنى ﴿خاتَم﴾ ما يفهمه العلماء، فكان ينبغي أن يفرح عليّ رضي الله عنه عندما رأى عبد الرحمن الأسلمي يعلِّم ابنيه لفظ (خاتِم) بكسر التاء، ولكنه أمره أن يعلّمهما ﴿خاتَم﴾ بفتحها لا بكسرها، مما يؤكد أن قراءة ﴿خاتَمَ النبيين﴾ بالفتح هي الأحوط عند عليّ رضي الله عنه. صحيح أن قراءة (خاتِم) بالكسر جائزة، ولكنه رضي الله عنه خاف أن يظن ابناه أن لا نبي بعد الرسول ﷺ حتى ولو كان تلميذا له وتابعا له ﷺ، فلذلك أمَر معلِّمَهما أن يُقرئهما ﴿خاتَم﴾ بفتح التاء لا بكسرها. مما يعني أن عليًّا رضي الله عنه يرى أن كلمة ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ لا تعني المعنى الذي يفهمه العامة -أي الذي يختم النبيين ويُنهِي النبوة كليةً- وإلا لما نهى معلِّم ابنيه من قراءة (خاتِم) بكسر التاء.

أما الرواية الرابعة التي تلقي الضوء على هذا الموضوع فهي رواية ابن مندة، عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا مَاتَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: إِنَّ لَهُ مُرْضِعًا فِي الْجَنَّةِ، وَلَوْ عَاشَ لَكَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا، وَلَوْ عَاشَ لَعَتَقَتْ أَخْوَالُهُ الْقِبْطُ وَمَا اسْتُرِقَّ قِبْطِيٌّ (ابن ماجة، كتاب الجنائز). وقد واجهَ العلماء مشكلة كبيرة هنا، لأنه إذا لم يكن هناك نبي بعد الرسول ﷺ فلماذا قال: وَلَوْ عَاشَ لَكَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا؟ وقد قال البعض حلاً لهذه المعضلة بأن ابن كلّ نبيٍّ نبيٌّ، وقد أمات الله تعالى إبراهيمَ لكي لا يصبح نبيًّا وليتحقق قولُه تعالى ﴿وخاتَمَ النبيين﴾. لكنه قولٌ باطل، لأنه لو صحّ أن ابن النبيّ نبيٌّ، فيجب أن يكون الناس كلهم أنبياء، لأنهم أبناء آدم، فإذا لم نعتبر آدم نبيًّا، فيجب أن يكون نصفُ العالم أو رُبْعُه أنبياء، لأن أكثر الناس هم أبناء نوح، بل كل الناس أبناؤه بحسب روايات بني إسرائيل.

كذلك لو صحّ أن ابن كل نبي نبي فيجب أن يكون جميع أبناء يعقوب عليه السلام أنبياء، لكننا نجد بينهم مَن باعوا أخاهم يوسف عليه السلام، وكذبوا على أبيهم بأن الذئب قد أكل يوسف. ثم لماذا لم يكن أبناء يوسف أنبياء؟ بل الحق أنه قد شاع بين الناس بعد وفاته عليه السلام أنه لن يبعث الله بعده نبيًّا. فلو أن أبناءه كانوا سيكونون أنبياء فلماذا قال الناس ذلك؟ فثبت أن القول أن ابن النبي نبي خلاف للواقع.

ويقول البعض أنه لما كان من المقدر أن لا يكون بعد النبي نبي، فخاف النبي ﷺ أنه لو عاش إبراهيم لصار نبيًّا، فلذلك أماته الله تعالى كي لا يصبح نبيا. ولكنه قول غير معقول ألبتة، لأن ما لم يكنْ مقدّرا من عند الله تعالى لا يقال عنه مثل هذه الكلمات. إن النبوة أمرٌ شرعيٌّ وليست بأمر طبيعي، وما دام بابها كان قد أُغلقَ، فأنّى لإبراهيم أن يصير نبيا؟ ما دام الله تعالى قد قرر ألا يكون بعد النبي نبي فكيف يمكن لإبراهيم أن يكون نبيا، حتى ولو عاش؟ فمن الخطأ القولُ أن الله تعالى أماته كي لا يكون نبيا، كلا، بل تُوفّي بحسب نواميس الله الطبيعية. وقد كانت نبوءةُ

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ منسجمة مع الأحداث الواقعة بعدها، وليس أن تلك الأحداث قد وقعت تحقيقًا لهذه النبوءة. وإن كان صحيحًا أن الله تعالى يخلق بعض الأحداث أحيانا تحقيقا لبعض النبوءات.

باختصار، إن هذا الحديث يثبت إمكانية النبوة، وإلا لما قال النبي ﷺ: لَوْ عَاشَ لَكَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا.